مزامير العكاز المكسور

مهندس
نبيل صلاح الدين

مفتتح

سأتعامل مع قلمي كالفرشاة
أخط بها كل يوم .. حرف
فكرة .. لمحة .. ومضة
جميلًا كان أو غير جميل
أعجبهم أم لم يعجبهم؛
ففي الحساب الختامي
هي عُصارة نفسي وأيامي
كم وددت أسكبها على الورق
فراشات زاهية بديعة الألوان
ففي الكتابة راحتي وخلاصي
وفيها
انعتاقي ،،،

نبيل صلاح الدين
نوفمبر ١٩٩٦

أخر كرم

عندما وجدته حاضرًا أمامي فجأة على باب ذلك المطعم المتواضع، كان يقفز متصايحًا «ربنا كرمنا أخر كرم». كان وجهه طافحًا بالبشر والحبور، نابت الذقن، رث الجلباب، شاحب السمرة قليلًا، معروقًا، يحمل صرة. عرّج على النصبة حيث كان المعلم واقفًا يعد السندوتشات تبادل معه حديثًا يحكي في حرارة وتدفق عن فيوض الكرم. أقبل حاملًا صحنًا معدنيًا مسطحًا من فول قليل وبصلتين ورغيفين. تخير طاولة قريبة يأكل عليها أحد العاملين بالمكان، وضع حمله ويتضاحك معه. اتجه إلى الحوض يجري الماء على ملعقة معدنية مسطحة، وحين عاد كان جليسه قد أتى على الكثير من صحن الفول الذي أحضره. تواصل الحديث الباسم وهو يقدم بود لصاحبه (فحلًا) من البصل. تناول لقيمات قليلة .. بل معدودة، وحين شرب كوب الماء كان صوت حمده مسموعًا، ثم انتصب قائمًا، حمل صرته ومضى يوزع الضحكات يمينًا ويسارًا.

نبيل صلاح الدين

ديسمبر ١٩٩٦

لامـع مـصقـول

سيارة عصرية تتهادى، تتوقف أمام الحلواني الكبير السابح في أضواء مبهرة. قبل أن يترجل راكبها الأنيق المهيب، ينبت من اللاشيء غلام ضال بالغ القذارة تنطق هيئته بسوء الحال والمآل. بأصابع قذرة ينقر زجاج السيارة وأشار إلى فيه يطلب مالًا كي يصيب طعامًا. توزع شهود الواقعة بين متعاطف مع الغلام ومشفق على الرجل الذي تبسم في سماحة وأومأ إيجابًا وترجل وهو يستخرج من جيبه نقودًا. تناول من بينها جنيهًا لامعًا مصقولًا وناوله للغلام. تنسحق الورقة اللامعة بين أصابع الكف المقززة ويمضي الوغد وعين الغدر تضمر كل شر لنفسه وللعالم. تباينت أحاسيس الشهود وتضاربت مشاعر من حضر وخيم على المكان صمت ثقيل.

نبيل صلاح الدين

أغسطس ٢٠٠٢

تــسويــق

مشغول للغاية، يعمل بهمة ونشوة، مستغرق تمامًا فيما أمامه. هل يرن جرس الباب بالفعل؟! أم هي أصوات متداخلة تغلّف الجو والمكان. حار هل هناك طارق الباب؟! أم تشابهت عليه الأصوات بين زحام من أصوات كثيرة، قضى الهاجس الدخيل على تركيزه والاحتشاد، لحسم الأمر، فلينظر من الباب!. يطل من العين السحرية، يبصر فتاة محجبة، سرعان ما أمكنه استقراء الموقف من خلال كيس بلاستيكي بال في يدها؛ أطلت منه مجموعة من زجاجات المنظفات رديئة الصنف والصناعة، يصعب أن تجد مشتريًا.!

يعذبه مرأى هؤلاء المطحونين من أجل لقمة العيش، مجرد البقاء حيًا في عالم الحيتان، وشت ملامحه بما يعتمل داخله، بأن عليها أن بلغتها الرسالة وهي تسأل في ارتباك؛ المدام موجودة؟

بكل عذابات الروح يجيب؛ مافيش مدام.!. لحظة واحدة من فضلك.!.

وارب الباب، يدخل ليحضر ما تيسر، فلا حاجة به لتلك البضاعة. يعود وقد أحضر بعض النقود.

حين فتح الباب، لم تكن الفتاة هناك .. لم يجد أحدًا ،،،

نبيل صلاح الدين

سبتمبر ١٩٩٩

لـيـلـة وضحـا هـا

«وحدهم لا يحق لهم انتظار نتائج، أولئك السائرون إلى الوراء الماضون إلى الخلف»

من قطوف الحكمة
بواكير القرن الحادي والعشرين

في المساء حين مر بهم كانوا يعملون بهمّة ملحوظة وانضباط لافت على إعداد المسجد الكبير لاستقبال عظيم آت. يتحركون في الداخل كالخليّة لتجهيز المكان، تنظيفه وتنسيقه. في الخارج كانت جماعة أخرى تعمل بذات الحماس والنظام لسقاية وغسيل مجموعة من النباتات والزهور الصناعيّة الملونة في أحواض تحيط بالمبنى. تبدّت ألوانها زاهية برّاقة تحت سيل الماء المنهمر. وفي الجانب الآخر. وعلى مقربة خطوات كانت نخلات صغيرة تحتضر، يصرخ بذلك اصفرار لونها وجفاف التربة من حولها.

وفي الصباح وعند مروره بالمسجد ألفى المزروعات المصنّعة وقد اخضرت وأينعت، ولم يدهش كثيرًا، إذ أمكنه أن يتبين النمو الملاحظ عليها مبشرًا بثمر قريب يوشك يحتضن أسوار البناء الكبير.

نبيل صلاح الدين

ديسمبر ٢٠٠٣

نـصف !! (حـد وتــه)

لعله أضعف مخلوق في الوجود، نقولها عنه بملء الفم فلديه حجّته الدامغة والدليل الساطع على ذلك. هو، حفظكم الله، نصف رجل، في الواقع، النصف العلوي منه فقط رجل بذراعين وهذا كل ما هنالك .. دون ساقين!! غني عن القول أنه النصف الأهم ولا غرو؛ فلا وجود وما سمعنا بنصف بشري أسف يتحرك مستقلًا. النصف السفلي وحده لا قيمة له بلا دماغ يوجهه، دماغ طبيعي أو صناعي أو الكتروني من تقنية متقدمة عالية. ولكن لا بأس فالأمر أبسط مما تتصورون، والحال خير مما تتخوفون؛ فهو يعيش عيشة الأسوياء، بلا فروق جوهرية، سوى أنه ومنذ تشكّل وعيه، قعيد كرسي متحرك. والأكثر من ذلك ما يتمتع به من ميّزات كبرى لا ينعم بها الأصحاء؛ الكل مطالب بإعانته، الجميع مدعوون لنصرته ونجدته أينما تعرض لظلم أو جور. أو موقف يعجز فيه عن الدفاع عن نفسه. وفوق كل هذا وذلك، لا يرجى منه الكثير، في الحقيقة ولا القليل، لا يرجى منه شيء البتّة. لكن الضروري المستحب والمرغوب، بل والمرجو؛ أن يخفف من ظهوره قدر الإمكان، يبتعد ويغرب عنهم بنقصه وعاهته، رحمة بهم ورأفة بضمائرهم وإحساس متوطن بالعجز.

في البداية، ومنذ شب على الطوق، عفوًا فهي عبارة غير معبرة ولا هي موحية، فلم تكن في الأمر أطواق. لكنها تعبر عن المرحلة السنية أو الفترة العمرية التي يتعين على الفرد فيها أن يمضي في الحياة

وحيدًا معتمدًا على نفسه دون عون خارجي، مستقلًا عن الأبوين والأسرة. عليه إيجاد عمل، أو البحث عن وظيفة، هذا ما أعلنته به الأسرة صراحة ودون مواربة، ظنهم أول الأمر يهزلون، فلم يقوموا على تعليمه يومًا وما كانوا هم أنفسهم من المتعلمين. عمومًا وبالتدرج المريح لم يكن بحاجة لاستنباط أو ابتداع طرق للارتزاق وكسب المال. بطبيعة الحال، كان الجميع أو أكثر ممن يلتقيهم أو يصادفوه، من يعرف أو لا يعرفهم يسارعون فيبادرون بإعطائه مالًا قل أو كثر، والعطايا والمعونات والكثير والكثير من نظرات الإشفاق أينما حلّ. هذا، ومن عجب أن يجد الكثير من الأصحاء الأشداء صعوبة، وقد يلقون عنتًا ومشقة في اكتساب المال، لكنه لم يعرفها أبدًا، يكفيه وحسبه أن يقف في مكان أو يتخذ موقعًا في هيئة معينة وبكيفية تنامي اقتدراه عليها مع تراكم خبرات المراس وخوض التجربة خاصة في المواقع الحسّاسة والميادين الكبرى، تجّار أو كبار يتسابقون كلهم في إغداق العطايا سرًا وعلانية، يا لها من أيام!! لذلك لم تدم طويلًا، فدوام الحال من المحال .. وذاك زمان ولّي؛ لم يعد يتعطّف حتى بنظرة عطف أو شفقة حقيقية، كلها مصمصة شفاه فارغة، دون فعل أو عطاء أو تكافل ذي معنى .. بل لا يعدم نفر منهم يؤذونه ويسيئون إليه قولًا وفعلًا. يسخرون منه ويلمزونه تلميحًا أو تصريحًا. لكن الحياة تمضي ولا تتوقف فعليه أن يحيا يعيش أو يتعايش.

فكّر في الرحيل، لم يعد له (مستقبل) هنا، لكن إلى أين؟ فالمناطق كلها تعاني ذات الفقر وضربها نفس الكساد. لأسباب عديدة مركبة لم

يعد هناك (حجاج) زمان، ممن يبادرون باللحم والثريد، وحلاوة المولد في موسمها، والكستور في الشتاء، دون طلب أو إلحاف فيه، تلك طائفة انقرضت، لم تعد موجودة ولا يدري كيف انقرضت، ففيم البقاء في هذه الأنحاء، عليه أن يبحث عن أرض وفرة، أرض براح، مجتمع رخاء كما سمعهم يقولون في التلفاز .. لابد أنها هناك حول بيت الحاكم.

جاءت الصورة الواقعية كما تصورها، لما تختلف كثيرًا عما تابعه مرارًا من مشاهد الصندوق السحري المثيرة، طرقات نظيفة وأكثر اتساعًا، تخلو من المتسكعين والمتسولين، الكل يمضي لحال سبيله، تغسل الشوارع كل يوم، والأشجار مقلمة بعناية، أرصفة جيدة التبليط.. أما قصر الحاكم فكان مهيبًا رائعًا بحق، لم يعرف قبلًا هذا البهاء وتلك الروعة، وكل ما حوله مرسوم بعناية والخطوط بيضاء ناصعة لامعة حول القصر الكبير. هنا.. هنا يمكنه أن يختار موقعًا، أو بقعة يحتلّها بكرسيّه، بعيدًا عن رذالات البشر، القوم هنا أكثر مالًا وقدرة ونفوذًا عن بقية المناطق، ويسعد من يجاور السعداء.

بدأ (النصف) يتبين طريقه، الأمر بسيط للغاية، كل ما عليه أن يقبع في الجوار، أن يتعايش في هذه الجيرة، أن يظل قريبًا من هذه المرابع ما أمكن، لا داعي للابتعاد كثيرًا، فقد يلاقي ما لا يحب. هنا الأمان الكامل ولا يأتي إلا ذو حيثية ونفوذ، والموقع ولا شك طارد للآفات كافة. هنا يمكنه الارتزاق بسهولة، الحاكم ورهطه، في بحبوحة أكيدة، والأغداق خصلتهم ومن شيمهم لا ريب.

جاءت التجربة كما توقعتها تمامًا؛ المؤشرات مشجعة للغاية والتدفقات مرضية تمامًا، أكدت صدق حدسه وحيوية وعافية الموقع وأهله، مواكب تكاد لا تنقطع من كبار القوم تفد لزيارة الحاكم، فلا يحرم من عطاياهم، هي الحياة الرغدة كما يقولون. لم يخل الأمر في البداية من بعض التحرشات من (الأوغاد) اللئام المتخمين غذاءً ورياءً. حاولوا بطرق شتى أبعاده، فلم يكن من اللائق، كما قالوا، أن يطالع الحاكم أو زواره من كبار القوم وعلية الناس، أمثاله من الحالات المزرية، لكنه تعلم المراوغة وتفنن في الاستخفاء عن أبصارهم، وهو موجود هنا أو هناك، في الزوايا المهملة حول القصر الكبير وحوله جوقته وصحبه (الأوباش) المتشردين الجياع.

ولمّا كانت واحة آمنة من تحرشات رجال الأمن، فقد طابت مقامًا لثلة من بائعات الهوى. الأمن في عصر (السوق)، منشغل بمهام أخرى يتضاءل إلى جانبها بعض المتسولين أو الأوباش المتشردين، أو بضع جانحات، وظيفتهم ومسئوليتهم الأساسية، همهم الأكبر سلامة الحاكم وأمنه الشخصي صادروا المنطقة فلا يؤمها سوى الحاكم وحاشيته وزوّاره والوفود، يأتون في مواكب فخمة مهيبة، يسبقهم الأتباع والحاشية توسع الطريق وتجهز الموقف.. كلها طوائف لا تقلقه، اختلاف (طبيعة العمل) لا يدع مجالًا للمنافسة، ولا يمكن إغفال حقيقة اختلاف (طبيعة الزبون)، هم صنف آخر من الناس، شريحة مختلفة من السوق، لا تعارض هناك بالمرة ولا من يعارضون. بارك الله فيما رزق، وبارك وطوبى للحجاج من كل لون. من كل حدب وصوب. لكن

للأيام تقلباتها وللدهر تصاريف، طالما كان مدركًا لتلك الحقائق، ربما هاجس في النفس يحدثه بزوال النعم، وهل هناك ما هو أنعم مما يأتي (رغدًا) دون سعي أو كدّ.

ما نفذت ألاعيب (الأوغاد) وما فترت أفاعيهم في العمل على أبعاده عن المنطقة وبين ترغيب جاء عرضهم واضحًا محددًا؛ عليك أن ترحل، قبل أن يعبّر عن أي ولم؟ كانت الإجابة اعتبارات أمن وسلامة الحاكم توجب ذلك بل تفرضه، ولكن ما هي المستجدات، فقيل أن التطورات المدهشة في القدرات الإجرامية لأولئك الرعاع والجياع، أصبحت تتطلب خططًا متقدمة لتطوير أداء جهاز أمن الحاكم وهو ما يحتل أولوية اهتمام كل مواطن محترم. ولكن لا تخش شيئًا فقد أعددنا للأمر عدته، ولن نتركك إلا بعد تمام التجهيز والتأهيل لتصبح كصحيح البنية سواء بسواء، وبعد سكتة قصيرة وربما أفضل. فتح صندوقًا كبيرًا كان يحمله، سرح (النصف) بفكره وغاب عن اللحظة وهو يرى أمامه أجمل ساقيين يمكن أن يحملا رجلًا، مقاييس مثالية، صحة فتوة، تقليد متقن بارع جدير بالثناء. استخرج أحدهم كتيبًا صغيرًا ليشرح له مزايا الساقين؛ من قوة لسرعة لاحتمال لرشاقة، طاقات عالية، وتضمن العرض إضافة لذلك مشروعًا (متناهي الصغر) يمكن أن يدر على صاحبنا عائدًا طيبًا مضمونًا مجربًا. بذلك ولكل ما سبق فليس ما يحول انطلاقه وبزخم عال للشارع الاقتصادي وعالم السوق. لم يكن (النصف) يومًا ممن يؤكلون بسهولة أو من يسمون باللقمة الطرية. أسعفته قريحته أو خبرته، لا شيء يغلب الخبرة، فأجاب ببساطة أنه كان

يود لو قبل العرض الكريم لكن لا يسعه سوى الاعتذار، وتعلل بأسباب خاصّة اعتبرها شخصية يفضل الاحتفاظ بها، وبالتضييق عليه بما خبره (الأوغاد) من أساليب الاستجواب أقر أمامهم، وهو يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته، أنهما سببان وجيهان؛ أنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ومن سواقط القيد فلا بطاقة لديه. ظل الأبواش يتندرون ببطولة (النصف) الذي هزم الأوغاد في تلك الوقعة وجعلهم أضحوكة المجالس بكلمات ودقائق معدودات.

تسارع بعدها الأحداث بشكل درامي ملفت، وتصاعد منحنى ضغط الأوغاد، لكن الحيلة التي قلبت الموقف بشكل درامي، كانت ذلك المسخ العجيب الغريب الذي فوجئ به يحتل موقعه مع بداية الوردية الصباحية من يوم أغبر لا ينسى، غريب، فلا يذكر أن رآه من قبل، عجيب إذ كان بكم الجلباب يتأرجح إلى جواره خاليًا من إحدى الذراعين، يتمتع بعاهة إضافية، مما يعد إعاقة مركبة، والأغرب أنه كان بمعية بعض (الأوغاد) يتحدثون في ود واضح ما أضفى على المشهد مسحة من واقع أليم.

تدهور الموقف بعدها في تسارع أوضح؛ إذ قبل أن يقيم الموقف كما يجب بإتاحة الفترة المناسبة الضرورية للجو العام المحيط بعملية اتخاذ القرار؛ ما يعرف بالتعايش الموازي لحالة صنع القرار، فاجأته طوارئ مستجدة، تدني وانخفاض حاد يدعو للقلق في التدفقات النقدية أو (الغلّة)، كان ذلك ما حول شرحه لرفاقه من الأوباش القلقين من تدني

نصيبهم مما كان يصيبهم، وأرجعه لما يمتصّه المسخ الملعون (أبو دراع) من القدرات والطاقات، دعا الجميع على المذكور بالخراب أو الموت وأمّن النصف بالقلب والعينين. قال بعض الخلصاء أنه أخطأ يوم رفض الساقين الصناعيين والمشروع «متعاظم الصغر» فمن الممكن بل والمفروض أن يبارك الله في مثل هذه المشروعات الطموحة إذ تهدف لتحقيق التنمية المستدامة وهي الأهم، وليس مجرد التنمية وحدها فقط فهي إلى زوال. ولم يعلم من يقول أن عليه أن يستوعب المعطيات وصولًا لإمكان التعايش مع المستجدّات الوافدة.

ثم جاءت الأنباء بأن الأوغاد استصدروا بأساليب أفعوانية مؤسفة، قرارًا بالإزالة، حتى بلغت بهم الصفاقة أن هددوا بالتنفيذ بالقوة الجبرية، وبات الأمر صراع البقاء أمام الونش، والونش لمن لا يعرف وحش مارد لا يجدي أو ينفع معه منطق أو حجّة أو حقوق أو شرع أو قانون أو برهان. تحفظ البعض وذهبوا إلى أن هناك ما يمكن أن يفيد في هذا الموقف. وحده فقط ونش آخر؛ أشدّ منه قدرة، أعلى طاقة، أكبر حمولة، أحدث تقنية مما لا يتوفر إلا للحكام والسلاطين ومن لفّ لفّهم. أشار بعض الأوباش أو من ذوي الرأي منهم ألا يركب راسه فلا قبل له ولا لغيره بالونش وليس أمامه سوى الرحيل. هي الحرب إذن! والحرب كما يقولون خدعة، فعليه بالمكيدة فهي أمضى سلاح. هز رأسه في صمت كمن يضمر أمرًا وهو يتسمع لذلك الهراء المتهافت ممن حسبهم أحباءه، بطانته وعزوته وسنوات من عطايا ومعونات وإغداق كان فيها بحق الراعي الرئيسي بما كان يضخّه؛ نقدًا وعينًا، طعامًا ودخانًا.

في الصباح قام (النصف) لساعته، فعمد إلى ذراعيه فبترهما قبل أن يرمي بهما جانبًا في بساطة أخّاذة أثارت حسد كل من حضر، استهول الأوباش الأمر واستغربوا فعلته، وأيقنوا من سوء العاقبة، ولكن ابتسامة الواثق من انتصاره كانت تملأ وجهه وهو يخاطبهم قائلًا؛ «النصر أكيد، ها أنا الآن أقوى وأقدر على لقاءهم من أي وقت مضى». لم يرسم علامة النصر بإصبعيه لأسباب غير خافية، وخرج (النصف) على الأوغاد بجلباب تتأرجح على جوانبه الأكمام خاوية بين تهليل الأوباش وهتافهم. بهت الأوغاد، فأرتج عليهم وأسقط في يدهم وبان في عيونهم التسليم. هذا وتجمع أدبيات هذه المرحلة على عبقرية هذه الخطوة، إذ أصاب (النصف) عصفورين أو أكثر بحجر واحد؛ ضمن موقعه بتأكيد مكانته بلا مناوئ، وتخلص من هاجس الونش، على العكس من (أبو دراع) الذي بات تحت رحمة الونش ليل نهار. لكن السؤال ظلّ قائمًا بعدها وتناقلته الأجيال لعقود طويلة؛ هل انتصر النصف على تلكم الأوغاد؟ أم أن الأوغاد كانوا هم الفائزين؟.

نبيل صلاح الدين

إبريل ٢٠٠٤

الـشرفـات الـبـعـيـدة

ضجّة وجلبة، موسيقى رديئة صاخبة نبهت أناسًا عدّة في مواقف وأحوال شتّى؛ استرعت جدّة عجوزًا أمام قدر على نار يغلي تطبخ لأبنائها والأحفاد. يعلو النفير والنقرزان، صبية يتواثبون يمينًا ويسارًا تتعالى صيحاتهم، يتصاعد غناؤهم وهم يتقافزون في مشهد تعيس إعلانًا عن عرض سحري وألعاب بهلوانية. جماعة من طلبة يذاكرون يجلس كلٍ إلى كتابه، البعض يكتب، والبعض الآخر يضع سمّاعة في أذنيه يستمع للموسيقى يتناقلون فيما بينهم لفافات تبغ ملفتة. انشغلوا عنها كل يعلق على الموسيقى الرديئة التي اقتحمت المكان. زوجان في شرفة. يشربان الشاي في جلسة صامتة والحوار شبه مقطوع، يتشاغل الزوج بقراءة الصحف، يبدو موظفًا منهكًا مطحونًا من ضحايا الأيام. شغالة في طابق علوي بعيد حيرى بين لهفة استطلاع الجلبة، وخشية ربّة المنزل.

يتقافز الصبية في حركات بهلوانية وتعلو الموسيقى صاخبة رديئة إيذانًا بعرض يحبس الأنفاس. يفرشون بساطًا باليًا متهرئًا، هو لبعض الكليم الخلق أقرب. يرفع كبيرهم الرجل عقيرته بالنداء يستجلب الصلوات على النبي من شهود قليلين لا يدري إن كان أقربهم قادرًا على سماعه، الشرفات والنوافذ بعيدة والشخوص فيها لا تكاد تبين. هل بمقدورهم رؤيته؟. تتداعى في مخيلته أيامًا كان يسمع فيها أنفاس النظارة إذ تحتبس وهو يؤدي ألعابه الخطرة، يطرب لتصفيقهم

وتهليلهم. نظرات العيون ترقبه بل تحصي عليه حركاته وسكناته، تتابعه أينما تحرك وآهات الاستحسان تتردد في مسامعه وتخلب ألعابه السحرية ألبابهم. لكنه الآن في مقام مختلف؛ إذ قد يعلن عن اللعبة فلا يسمعه أحد، قد لا يرقبه أحد ولكن عليه أن يمضي في اللعبة حتى النهاية.

يتمدد على قطعة البساط المتهرئة، تتصاعد دقات الطبول مؤذنة ببداية اللعبة التي يتحدى فيها الموت كما يقول وهو يزعق حتى تنتفخ عروق رقبته الهزيلة في الفضاء الفسيح. لم تكن البنايات على هذه الارتفاعات الشاهقة. كان بمقدوره رؤية النظارة بيسر ووضوح في الشرفات والنوافذ القريبة، يلمح أساريرهم تتهلل بشرًا واستحسانًا، أو ملامحهم تتقلص قلقًا ولهفة. نظراتهم لا تغادره أو تغيب عنه لحظة وهو يؤدي ألعابه في استمتاع خفي وظاهر يتحلق حوله النظارة خليط عجيب من كبار وصغار، رجال ونساء صبية وشباب وكهول من كل الأعمار يستغرقهم العرض السحري من مهارات وخفة يد يؤديه بمتعة لا تعادلها متعة عيناه تتحركان بحثًا عن شهود أو نظارة، يترقب أحد صبيانه وقد حمل لوحًا خشبيًا صغيرًا تبرز منه سكاكين كثيرة، يدور الصبي بحمله يطلع النظارة عليه في طريقه كي يضعه على صدر الرجل قبل أن يقف على اللوح ويثب لأعلى ليحط بعدها على اللوح بكل ثقله. تنغرز السكاكين في صدر الرجل ويتصاعد تهليل المشاهدين وهتافهم.

اجتذبت الجلبة بعض المارّة من الشارع التجاري الكبير المجاور، لكنهم كان يطالعون المشهد بدوافع الفضول وبشكل عرضي عابر، عابرون في شريط سينمائي. لم يتجمهر أو يتحلق منهم أحد، ربما تلكأ البعض أو توقف قليلًا، ولكن لم يصبر أو يبق أحد حتى اكتمال اللعبة أو تمام العرض.

تنغرز السكاكين في لحم الرجل دون كثير إحساس بالألم، عيناه معلقتان بحاجّة تطل من نافذة الطبل في لحن أليف، تداعي عليها شريط من ذكريات بعيدة، أطلت من النافذة منذ لحظات لكنها الآن لم تعد هناك، غابت في الداخل تتابع طعامًا يطبخ تعالي صوت فورانه، اعتبار ساد وطغى على ما سواه من اعتبارات اللحظة. لكن صاحبنا كان غارقًا في هم رزق لا يأت، ربما غاب قبل أن يظهر. في الشرفة الأقرب، كان الزوجان في نقاش حاد، تتناهى لسمعه غمغمات لا تبين من كلمات قاسية تبادلاها، لكنهما لم يشهدا السكاكين وهي تنغرس في لحمه لم يجتذبه ذلك أو يسترعيهم ولو للحظات، لم يثر قدرًا ولو يسيرًا من اهتمامهم الوقتي. لا يظفر منهم إلا بنظرات عجلى قد تمتد للحظات ولكن لا تدوم. البنايات شاهقة والشخوص بعيدة والصوت لا يسمع والشارع التجاري يجتذب كل المارة لا يحف أحدهم بنظرة ثانية، الأولى فقط قد تمتد أو تطول قليلًا، ولكنها أبدًا لا تدوم، وينصرف كل منهم غير حافل بما يراه من ألاعيب وقدرات خارقة.

اليأس عدو لا يرحم، يفتك بضحيته بأقسى ما يمكن أن ينزله بها أعدى أعدائها وألد خصومها، لكنه كان أكثر خبرة وأصلب عودًا من أن

يترك نفسه فريسة لليأس التام. قد يمر به أو يتعرض له كلمحات عابرة لكن الأمل يظل أبدًا قائمًا. ما زال في جعبته سهم مجرّب مؤكد المفعول؛ لعبة النار تجتذب كل شارد الذهن مهما كانت شواغله، لعبة النار قادرة على حبس أنفاس المشاهدين وفرض حالة من اللهفة والترقب على النظارة والشهود، كبارًا وصغارًا. على كل حال هي السهم الأخير، الأمل المتبقي. تتصاعد الموسيقى وتتسارع إيقاعات الطبول وألاعيب البهلوانية للصبية. يناوله أحدهم سيخين قصيرين من حديد تغطي أطرافهما قطع خلقة من قماش متكور. يدور بهما على الحاضرين إذ يحركهما بتناسق في مهارة ملحوظة، هو يدرك جيدًا تلك اللحظة التي سيبدأ عندها في سكب (الجاز) على السيخين تمهيدًا لإشعال النار، يقرؤها في العيون المتحلقة ويستعرضها من حولها وهو يرفع عقيرته طالبًا سماع (الصلاة على النبي)، سرعان ما يتجاوب الجمع وتتعالى الصلوات والتهليل. يطالبهم بالمزيد فتتصاعد أصواتهم في استجابة حماسية. يسكب الجاز فتتساقط قطرات منه على الأرض. يشعل النار في الكرتين الملتهبتين ثم يعلو صوته مجددًا يستمطر الصلوات على النبي، لكن الاستجابة آخذة في الخفوت، فالنظارة والحفل ينفضون تباعًا ليمضي كل إلى حال سبيله وينسحب الجمع في هدوء ولا يبقى إلا نفر قليل يعدّون على أصابع اليد من نوعيّات يعلمها جيدًا فهي كالعدم. يتلاعب بكريات اللهب بدربة ملحوظة وترسم كريات اللهب بدربة ملحوظة وترسم كريات النار أشكالًا مثيرة على خلفية من ظلام آخذ في الانتشار. كلما تقدم خطوة ازداد يقينه من قلة النظارة فالكل مضى في

طريقه المرسوم بعد لحظات الفضول العفوية الأولى. الشرفات أكثر بعدًا وهي تغرق في أستار من ظلام تزداد كثافته. ينفث النار في الهواء كمن يطلق العنان لحمم من غيظ محبوس. لم يسمع تصفيقًا ولم يحس بآهات تتعالى من حوله. ربما خرج بعض العاملين في المحال المحيطة استطلاعًا وفضولًا. تمر قروية في جلباب أسود تحمل رضيعًا وتجر باليد الأخرى صبيًا أصر على الوقوف لاستطاع أمر عجب لم يره من قبل. يبدأ الشد والجذب بين الصبي المشدوه والأم المنهكة في حزن ملطخ بشقاء، وبين بقاء ورحيل يفوتهما المشهد الكبير، اللحظة الحاسمة؛ الرجل يقفز قفزة الموت .. القفزة الكبرى من خلال الطوق المعدني المشتعل في جسارة تتحدى النار هي كل رأس ماله. لم تتعال صيحات استحسان أو أهات إعجاب أو تشجيع وعز التصفيق. بل لم يكن من حوله أحدًا. يبدأ عمال المحال المحيطة في الانسحاب إلى أماكنهم والعودة إلى مشاغلهم وخلت الشرفات ولم يعد هناك من أحد في نوافذ كانت مشغولة منذ دقائق. لا أحد، وحده الفراغ فقط أمام تقدم الصبية لجمع (الغلّة) أو ما قد يأت من قروش قليلة. تبدأ القروية في ضرب الصبيّ تمهيدًا لجرّه عنوة رغم صرخاته، مبتعدة عن المكان. ينهض الحاوي بعد سقطته المجيدة يستطلع الموقف من حوله فلا يرى أحدًا سوى الصبية لا يجدون من يمكن ابتزازه. كان يعلم من البداية أن عليه أن يقدم العرض وإن عز الشهود. وحين بدأ الركب الحزين في التحرك حاملين عدتهم وعتادهم في مسيرة صامتة على خلفية من

صراخ الصبي وعويل الأم تلعن الصبي وتندب النصيب والزمن، كانت المحال المحيطة تضاعف الإضاءة وتتهيأ لجولة المساء.

نبيل صلاح الدين

مايو ٢٠٠٤

كونشرتو النفر والصرصور

«الصرصور من أقدم الكائنات الحية على وجه البسيطة»

مصدر مسئول

ظل هاجسًا كريهًا تلبّسه ومنذ الطفولة السحيقة، ذلك أن يضطر، تحت ظرف من الظروف، للتعايش تحت سقف واحد مع صرصور.. مطلق صرصور. لأمر ما، يعاني نم نفور غريزي فطري تجاه تلك النوعية الدنيئة من الحشرات والهوام. تردد أنه عولج من هذا الوسواس الذي أقضّ مضجعه. تمحور العلاج حول محاولات حثيثة لإقناعه بحتميّة ظهور صرصور فجأة هنا أو هناك على مسرح الأحداث، وجود صرصار دون مقدمات اليوم أو أمس، أو غدًا، قد لا يضر أحدًا أو يسبب إزعاجًا ما، كلها احتمالات مفتوحة وعليه أن يتقبل هذه الحقيقة المرّة بتسليم كامل وامتثال تام. أن يكون مستعدًا على الدوام لقبول وقوعها وتحققها في أي لحظة بالقبول والرضا الضروريين والمناسبين.

لسوء الحظ ونكد الطالع كان النفر عنيدًا بطبعه، فقد رفض دومًا ذلك الطرح وتلك المقولة العرجاء، كافح الحشرات والهوام باعتبار ذلك فرض عين على كل محب للحياة. نجح بالفعل في أن يعيش حياة خالية من الصراصير، خلوًا من الانصياع والتسليم بحتمية وجودها وعقلانية التعايش معها. تسري في جسده لمرآها قشعريرة، تجتاحه موجة من التقزز والاشمئزاز تتلبسّه فتملك عليك كل تفكير. منتهى مناه اختفاء تلك

المخلوقات الخسيسة بأسرع ما يمكن، أو أن تنشق الأرض فتبتلعه هو. لا يتصور فكرة أن يجمعه بتلك الهوام الوضيعة عالم واحد.

يعترف الكاتب أن المقدمة طويلة، ولكنها ضرورية، لبيان ما اختزنه النفر من بغض وعاناه من عذابات جرّاء تلك الحشرات الدنيئة، وكذلك لتصوير حجم الخطب وهول الخطب وهول المأساة حين أبصره في لحظة تعيسة تتراقص شواربه مطلة من خلف الثلاجة في المطبخ المعتم. عندما تحققت أسوأ مخاوفه بل أبشع هواجسه في تلك اللحظة المفصلية الفارقة على مسار العلاقة التاريخية بين النفر والصرصور. في حركات محمومة راح يبحث عن سلاحه المجرّب في هذه الأحوال؛ تمتد يده لهفى بحثًا عن ذلك المبيد السحري كما يؤكد الإعلان، مع الرشة الأولى ومن بين الذرات، تبين الصرصار يستدير مبتعدًا لكن النظرة والابتسامة المستهزئة لم تفوته والأكثر؛ لم تعجبه على الإطلاق. مسكين ذلك الصرصور الشاب فهو لا يدري أن النفر سيفرغ الأنبوب بكامله ضمانًا لإبادة أي حشرات دخيلة في دائرة قطرها أميال، المشكلة ليست في الصرصار الشاب الذي رآه، وإنما في أسرته والذرية ممن لابد قابعون هنا وهناك. حين آب لفراشه تلك الليلة كان قرير العين بالإنجاز الذي حققه؛ فبإمكانه أن يقسم أن طلائع الغزاة قد تمت إبادتهم بالكامل.

في الصباح قام نشيطًا خفيفًا مقبلًا مؤمنًا بمفعول المبيد السحري. ولكن الأمر لم يطل قبل أن يتبين صرصورًا جديدًا موسط الحجم يتمشى

بحرية تامة، وحتى بعد أن أحس بوجود النفر لم يتغير مساره أو مسلكه، استمر النفر في نظرته الإيجابية المتفائلة مفترضًا أن المذكور ربما وافد جديد لم يصل الأمن وقت قليل، أي لم يكن موجودًا عندما استخدم النفر أسلحته للإبادة الشاملة، ولا يعدون أن يكون حالة فردية استثنائية شاذة وعاجلًا ما يغيب أو يغيب عن مسرح الأحداث. ولكنه سرعان ما التقى بمجموعات منهم تتحرك بالقرب من المطبخ. المبيدات وأدوية المكافحة فقدت فاعليتها أمام زحف الصرصور. يتعين أن يكون مسئولًا لديه الإجابة على تلك التساؤلات.

بدأ النفر بالاعتذار عما يمكن أن يكون قد سببه من إزعاج قالها، في حضرة المسئول الكبير الذي بدا مرتاحًا معطرًا يعمل باطمئنان يؤكد أن كافة شيء على ما يرام. داخله هاجس أن يكون الوقت غير مناسب من حيث حجم الملفات وكم الهواتف من حوله في أصناف وألوان مختلفة عديدة. وعندما رفع المسئول حاجبيه بفعل ما سمعه من وقائع مدهشة سردها النفر بحرقة وإخلاص عن صراصير تتحدّى المبيدات بل تتحداه .. تتحدى النفر وتتحرك بحرية بل وتتكاثر بمعدلات سرطانية، سر النفر وأيقن بما يشبه الخلاص، إذا أكد المسئول في بساطة ودودة أن لا علم لديه بالمرة ولا يدري عم يتكلم النفر، واهتزت رأسه تأكيدًا وهو يشير للرسومات البيانية المؤطرة تحيطه من كل جانب بعضها دولي والكثير والكثير محلي وإقليمي ..، لم نبلغ بأي شكاوى بخصوص عدم فاعلية المبيدات أو تدن أو أدنى انكماش في

معدلات الفتك والإبادة، على العكس تمامًا فكلها حاصلة على شهادات دولية وميداليات تذكارية في مسابقات دولية ومهرجانات عالمية.

لكن، ولنكن واقعيين، لا يمكن القضاء على الصراصير قضاءً مبرمًا تامًا؛ بمعنى الإبادة الشاملة، هنا يجب أن يكون على استيعاب كاف وضروري لحجم قدراتنا ومدى محدودية إمكاناتنا، المسألة في حيز غير الممكن أو غير المتاح، تفوق إمكانياتنا وأبعاد طموحاتنا وتتخطى حدود تطلعاتنا، لأن الوصول لهذه النقطة بمعنى اختفاء جنس الصرصور؛ يعني بالتالي خللًا أساسيًا في دورة الاقتصاد. ما مصير كل هذه الاستثمارات الضخمة، والأيدي العاملة العملاقة، والبنية التحتية لهذه الصناعة الاستراتيجية؟؟!!. ومضى ليؤكد ضرورة وجود الصراصير كمطلب أساسي حتمي وضروري ولازم لإمكان تحقيق دوران عجلة الإنتاج، وإدارة دولاب قطاع حيوي هام ورئيسي، هو القوة المحركة لتيار من الأموال في صورة سائلة بين أيدي الأفراد والأنفار تتحكم في إيقاع حركة حياتهم اليومية وتعين أنماط سلوكياتهم الشائعة.وتابع ليقطع في حماس أن الصرصور وجد ليبقى قالها بصوت بارد كالسكين. ما عجزتم عن فهمه حتى الآن، مضى يقول، واستيعابه بالشكل المرضي، هو أن الصراصير بشكل عام ليست كلها صرصورًا واحدًا، وإنما طيف كامل من النوعيات والأصناف؛ هناك طيف كامل من أصناف الصرصور، بدءًا من الأبيض البريء تمامًا مرورًا بالبني بكافة درجاته وصولًا للأسود الذي نتفق جميعًا على كراهيته، وأجمعنا على وجوب محاربته ومكافحته بل والقضاء عليه. لكن علينا أن نتعامل

مع كل فصيل منها بالأسلوب والمدخل المتناغم مع موقفه المبدئي والمدخل الذي يتبناه في التعامل مع دوران عجلة الاقتصاد المجتمعي بشقيه؛ توفير فرص عمل، وتدوير محفظة الاستثمار بشكل عام.

ومن ناحية أخرى فإن العقبة الرئيسة أمام تحقيق عالم واقعي أقرب إلى التوازن، وهو قلب الاستمرار وقطب الاستقرار – بين الأنفار وجنس الصرصور – تتمثل في تيارين رئيسيين، يمثلان معًا نوعًا من التعزيز والتشجيع في الاتجاه المضاد؛ بمعنى تشجيع الهجرة إلى الداخل واجتذاب صراصير من مناطق وأحياء مجاورة؛ تتخلق هذه المناطق على أيدي أولئك الأنفار من ذوي المقدرة العالية على توليد النافيات والمخلفات مقارنة بنظرائهم من ذوي القدرات المتواضعة على توليدها، وهي المناطق الغنية بالنفايات والمخلفات بمعنى أن الأخيرة هي في الواقع من الثروات الطبيعية فهي المادة الأولية أو الخام الأساسي تقوم عليها منظومة كبيرة من الصناعات والأبحاث والتجارة والإعلان، علاوة على أنها البيئة الطبيعية لتفريخ العنصر الأساسي الذي تقوم عليه منظومة متوازية من صناعات وتجارة وأبحاث وإعلان وتسويق وتوزيع المبيدات والمضادات الحشرية. التوازن بين كم المخلفات أو حجم النفايات المتولدة عن مجتمع ما والقدرة الذاتية لنفس المجتمع على جمع المخلفات إزالتها والتعامل معها بعيدًا عن الكتلة السكانية هو عنوان الاستقرار فإن قصّرت الأفراد أو الأدوات سيظل حجم النفايات في تصاعد أمام أعين الأنفار الذين يقومون بواجبهم تمامًا بكفاءة تامة في حدود الطاقات والإمكانات المتوفرة. عندها تصبح البيئة كما لو

كانت البيئة الجاذبة والحاضنة لهجرة بني صرصور من المناطق المحيطة وبذلك تزدهر منظومة صناعات أبحاث وتسويق المبيدات وأدوات المكافحة.

وقر وجدان النفر في آخر المطاف أن الصرصور وجد ليبقى، هو موجود قبل الأنفار أنفسهم الذين يعملون على إبادته ويتفننون في استنباط وابتداع أنواع وأصناف المبيدات الجهنمية والمضادات الشيطانية من المبيدات، والمكافحة والعمل على الإضرار بهم بكل السبل. في الواقع لم يعد النفر وسيلة ولا حيلة إلا وجربها، وبرغم ذلك فالصراصير هنا أو هناك، في الزوايا والأركان وعلى الحوائط والأراضي، يمرح الكثيرون منهم ويعربد على قطع الأثاث وقد يحتك بالسكان أنفسهم وهنا تكون التجربة مثيرة، تأثيراتها متفاوتة متضاربة متغيرة وفقًا لموقف كل فرد ووجهة نظرة رأيه وموقفه في هذه المسألة الحساسة نابع من مداخله ومنطلقاته الفكرية وأولًا وأخيرًا..، يعلو على البعد بكاء يعلن ميلاد نفر صغير قادم جديد. سرح النفر بفكرة وجال طويلًا؛ ترى على أي صورة يكون الوافد الجديد؛ أيكون على نهج أسلافه ممن توسلوا بالمبيدات أو اعتمدوا اللقاحات أم أولئك العاملين بالقاعدة الذهبية إن لم تستطع هزيمتهم، حسنًا فلتنضم إليهم، أم يكون في القادم نفر ممن لا يرون في غير الحذاء خيارًا أو بديلًا.

نبيل صلاح الدين

يوليو ٢٠٠٤

أيـــزو

في البدء، لم يستوعب ما قاله تمامًا. لم يهضم تحديدًا معنى عبارتها «فارس أحلامي». تمنى عليها أن تفسر ما تعنيه بدقة. كررت ذات القول دون تغيير سوى الضغط على مخارج الحروف. شرع يحاول إفهامها بموضوعية تامة؛ أن مفهوم فارس الأحلام هو أولًا وأخيرًا محض خيال، لا علاقة له بالواقع. أمنت على قوله كأحسن ما يكون: وزادت فأكدت أن ذلك ما اعتقدته لسنين طويلة، حتى تجسد أمامها بشرًا سويًا من لحم وشحم، بل ورقم قومي.

في بطء وأناة شرع يكرر ما قالته، تساءل هل تعني أنها وجدت أو التقت في الواقع المعيش بشخص أو مواطن ما، مطابق لصورة فارس أحلامها ويماثله في الصفات؟ أومأت برأسها الجميل في موافقة صريحة. ظل يردد لفترة كغير المصدق .. هل تطابقت الملامح إلى هذا الحد!! أكدّت أن لا ينقصه سوى الحصان الأبيض. كان من الشجاعة وثبات الحنان أن شد قامته وسألها بحسم: فمن أكون أنا إذا؟ بابتسامة عريضة ونبرة حانية قالت أنه «فتى أحلامها» وأوضحت بصراحة أنه شيء مختلف كلية عن «فارس أحلامها» وفي مداخلة قيمة بينت أنه لاتعارض بينهما البتة. بدأت فأقرّت بأنها تدرك مدى الصعوبة التي يلاقيها في محاولة فهم الفارق. ومضت تشرح في صراحة أن صاحبنا كان أفضل المتاح في اللحظة التي تقدم فيها لخطبتها مال وشباب وسامة سيارة فارهة ومحمول مع نزعة من الفندقة وميول سياحية ملحوظة،

حلم كل فتاة، باختصار أمنية أي شاب عصري، وفكان كما قالت بحق كان في مجموعة عرض يصعب، على أي شابة عاقلة أن ترفضه خاصة بعدما تبين أن (الفارس) هو محض خيال، قد لا يفارقها في الصحو والمنام ومنذ بواكير ارتعاشات القلب الأولى. ثم عادت فكررت أنها لا تعارض أو تضارب بينهما بالمرة إذا ما استوعب الفارق الدقيق بين اللفظين؛ هو رجلي في عالم الحلم والشعور، وأنت زوجي، أنت دنيا الواقع والحقيقة.

الآن وقد أضحى لدينا حقيقتان واقعتان لا واحدة، علينا أن نفكر بهدوء، نعمل الفكر في روية ودون انفعال، ما عسانا نصنع، كيف نتصرّف ومن أين نبدأ، ولا ننسى أنك قد تأتي بأفعال تندم عليها، بتأثير من تحت ضغوط نفسية وقتية عابرة، تندم عليها فيما بعد وعلى طول المدى. علينا ألا نهدم ما بنينا ه سويًا، ألا نحكم على الأسرة بالفرقة والتشتت. علينا أن نحافظ على هذا الكيان ونحتفظ بالجو الأسري، نتعامل ونتصرف بالإدراك الواعي لحقائق واقع مستجد. فارس أحلامي تحقق تجسّد ومن المستحيل أن أضحّي به أو أتنازل عنه. وأنت أيضًا باعتبارك فتى أحلامي، الأب ورب الأسرة يصعب أن أتخلى عنك أو أهجرك، البيت والأبناء جزء مني، كياني أو حياتي كلها. لكن ما حيلتي أمام حيال مشاعر فوّارة وأحاسيس جياشة وعاطفة تتأجج في صدري منذ صباها، حبيسة لا تجد منفذًا أو متنفسًا. كيف يمكن أن تظل كامنة وقد تجسدت الأحلام بشرًا يتنفس.

أن تتعايش الحقيقتان جنبًا إلى جنب، لا تطغى أحداهما على الأخرى، فنفقد واحدة أو نفقدهما معًا. علينا أن نحفظ حياتنا الأسرية وفي القلب منها أنت الزوج والأبناء. ولكن للحقيقة الأخرى في قلب مكانًا وعقلي على الدوام.. أتعرف معنى «فارس الأحلام».؟!!!

عندما آب كل منهما لفراش منفصل لأول مرة، منذ الزواج بدعوى أنها منذ أعلنته بحقيقة الأمر فإن مرتكزات التعايش الآتي تستدعي الشفافية المفرطة، وعليه فلا بد من تباعدهم وانفصالهم جسديًا في لحظات معينة وأحوال متفرقة حين يتطلب الأمر ذلك التنائي الوقتي لساعات أو سويعات ولربما ليلة أو ليال على أقصى تقدير. يبدو أنها تعني أنها تريد الاختلاء الروحي به في هذه الليلة تحديدًا. تغادر المكان وهي تلقي إليه٨ بصورة غريمة الفوتوغرافية. داخله فرح خفيّ وعجب لسذاجتها فقد أدّت له خدمة جليلة، أن تعرف وتدرس عدوك بالشكل الكافي يساعدك في وضع اللوجستية الاضطرارية لهزيمة هذا الخصم هي دون أن تدري قدمت له بيانات تخدم أهدافه في الإطاحة بخصمه الفوز بالحبيبة.

أخيرًا غريمه أمامه، لعله من الخير أن تجسد بشرًا سويًا حيث يمكن هزيمته والقضاء عليه، أما حين كان في عالم الخيال فكن كمن يحارب طواحين الهواء، مهزوم منهوك. يتأمل الصورة، لاشك أن الفارس يتحلى بطلة يصعب أن تتكرر، ولكن كل ما هنالك نوعية الجل الذي يستخدمه، ولكن صاحبنا يعرف النوع المستعمل لأنه لا تفوته متابعة الإعلانات حتى يتخلف عمن حوله فيعرفون ذلك وهو أخشى ما

يخشاه. فالحرص على متابعة الإعلانات خاصة من الفضائيات من أولوياته، يحيره أن يكون التخلف إلى هذه الدرجة فيسبقنا كل من حولنا بهذا الشكل المعيب. ربما كان لون العينين مختلفًا قليلًا ولكن ذلك يسهل معالجته بالعدسات اللاصقة المتوافرة بكل الألوان. أما القامة فيمكن بسهولة إحداث أي تعديلات مبتغاة وبسهولة جديرة بالإعجاب مع هذه المعدات الحديثة التي تملأ الأسواق لتنحيف الخصر وتسطيح الأرداف واستدارة الأفخاذ اكتساب المظهر الرياضي هو باختصار أقرب الطرق لقلب المرأة؛ قلب الرجل في معدته أما الطريق لقلب المرأة فيمر من مسارب أخرى، أيضًا اكتساب اللون البرونزي خاصة في الشتاء حين تعز الشمس كلها لها تأثيرات إيجابية جدًا وحيوية فيما يختص بقابلية المرأة للقبول وللانجذاب لأفراد معينة من الجنس الآخر، مداومة كبت مثل هذه النزوع الطبيعية يؤدي لنوع من إحباط الإرادة نفسها، أي إعاقة مرحلة ما قبل الفعل. تظل المشكلة الأزلية والمسألة المحورية في البطن المشدودة المسطحة تمامًا كمثل كتلك التي تراها بتكرار واستمرار في شبه جميع المحطات أرضية وفضائية وبصورة يمكن اعتبارها ظاهرة اجتماعية مجتمعية تتنامى وتتطور بشكل تدريجي في كل لحظة أمام نسبة مشاهدين تتضاعف باستمرار كل ثانية، لأنها في توقيت أحسن اختياره بدقة بالغة وعناية فائقة؛ قبل ضربة البداية بكسر من الثانية في المباريات الرياضية ذات الأهمية البالغة والصقة العولمية. التوقيت هو سر اللعبة، رمانة الميزان هي حسن ودقة اختياره. استدارة الأرداف ليونة الأفخاذ، رشاقة الوسط كلها عوامل وعناصر إيجابية لكن يسهل

تحقيق التقدم فيها بأجهزة تعويضية أو معدات التدليك للتعامل مع الواضع المعيبة والمسيئة للمظهر العام وكلها متاحة على الأرفف تحسن من جسمك تدرب العضلات دون عناء، دون بذل مجهود تمارس الرياضة بلا تعب أو جهد وبأسعار في متناول الجميع ولكها عروض بين خاصة وشديدة الخصوصية والتسليم على مدار الساعة بالهاتف. وأيضًا لا مشكلة من ناحية العينين بالمرّة؛ النظارة الشمسية مجال مفتوح يمكنه من هزيمته بسهولة، ولديه العلم بخبايا هذه الصناعة المسيطرة ويمكنه الحصول على ما يريد منها وبتسهيلات في الدفع لا يمكن تصورها، بل ومن مصادر لا يمكنك معرفة إن كانت أصلية من عدمه مصادر خفيّة لا تكاد تفرق بين منتجها والمنتج الأصلي وبأسعار لا تصدق.

قد لا يتبقى من المشاكل سوى ما يبدو عليه من مخايل الثقافة، شكلهم أولئك المثقفين عنده مضمون مجرب؛ أينما طالعتك تلك السحنة فأنت ما يسمون حاليًا (مثقف). لهم ملامح معينة محددة تكاد تكون ناطقة بهم. ولعل أحد أهم الملامح التي تجتذب الجنس الآخر إليهم؛ قدرتهم أو قل سرعتهم في حل (الكلمات المتقاطعة)، والتنافس المستمر في حل المسابقات والألغاز بالاتصال التليفوني. ظاهرة قدرته على اصطياد نصيبه من الجنس الآخر بسرعة وسهولة تستدعي الإعجاب والحسد، ولم تحظ منا بما يليق من بالدراسة الكافية. لكن لحسن الحظ فإن هناك أفرادًا وقدرات وأدوات دائمة البحث في مثل هذه الاهتمامات والاحتياجات بغرض السعي الدائم في تطويرها، وتحسين انتاجها،

وتنمية مبيعاتها، فتوصلوا لهذا الجهاز الذي وبمجرد إدخال البيانات تخرج المعلومات من الجانب الآخر وفيها الإجابة الصحيحة والعلاج الشافي لأعتى الأسئلة فتصبح أسرع أو أقرب إلى الإجابة الصحيحة أو الفائزة ممن ينافسك بكثير، قد تكون بأجزاء من الثانية ولكنها ثواني أو كسورها ثمينة ولا تقدر بمال.

ما يفصلنا عن يوم الخميس هو كل ما تبقى لديه من وقت قبل موعد اختلائهما المتوقع الذي تتصاعد فيه منحنيات واحتمالات ما قد يجري بين الطرفين، فيحدث ما لا تحمد عقباه. لا يسمح لمثل هذه الأفكار السلبية أن تطغي عليه لكن بإمكانه أن يكون (جهيزة) ويقطع قول كل خطيب. ببساطة نحن في سباق مع الزمن للحصول على الأيزو. شهادة الأيزو، الملف والمستندات الثبوتية جاهزة وله بأعضاء اللجنة علاقات خاصة وعند حصوله على شهادة الأيزو لن يجد الفارس حيال ذلك ردًا أو يملك له صدًا، هي لحظة الحقيقة وعليه أن يواجهها.. أين هو من عصر العولمة.؟؟!!

نبيل صلاح الدين

يوليو ٢٠٠٤

مزامير العكاز المكسور

نشرة الأخبار على الهواء مباشرة من التلفاز، تؤكد أن الغزاة قد دخلوا العاصمة أو بعبارة أدق فتحوها، واستسلمت آخر فلول المقاومة دون مقاومة، استدعى الأمر جهدًا غير عادي لاستيعابه. صحيح أن الأمر كان ورادًا محتملًا بل بمتوقعًا، وبكنه ظل وعلى الدوام بعيدًا في الخيال والفكرة، فدونه كما يظن، حرب وكفاح واستبسال ونضال وقتال ومقاومة وصمود وتصد ورفض وثبات مراحل عديدة يتحتم أن تستغرق وقتًا طويلًا، قبل أني يتعين علينا الرضوخ والقبول بأنهم أصبحوا هنا على الباب.

لا بأس، فبإمكانه التعايش مع الأمر كونه معنى في الأساس بمعدلات التنمية، فلولاها لمتنا تحت وطأة الزيادة الرهيبة المطردة في السكان، والتي لا علاج لها سوى التنمية المستدامة حيال انفالت الإنجاب غير المخطط أو المبرمج. المطلوب دراسة القدرة الاقتصادية الفعلية تحت الاحتلال، وتفعليها في إدارة عجلة الاقتصاد لضمان تحقيق المعدلات المناسبة الآمنة في مثل هذه الظروف. علينا الأخذ بمعايير قياس الأداء الاقتصادي والكفاءة الميدانية للعملية التنموية، عندها إن كانت إيجابية فذلك يعني أن أبناءه سيعيشون حياة أفضل، في وطن أجمل وأكثر قدرة على الجذب السياحي والاستثمار واجتذاب رؤوس المال.

من بقعة أخرى غير بعيدة، قريبة من الروح تتوالى الأنباء لا تصدق. صبية قاموا للدبابات بالحجارة، وأخوة لهم حملوا السلاح عراة الصدور دفعًا للطائرات وأعتى ترسانات أسلحة عدوهم، ولعله العدو واحد في كل مكان. سنوات تمضي ويسقط الشهداء والجرحى، والمنازل والبيوت، ويمعن المحتل في أوصال الوطن تمزيقًا، ويحكم الحصار والتجويع، وهم يقيمون العرس تلو العرس، تزغرد الأمهات لاستشهاد بناتهن والأبناء. ويكبر الرجال وهم يشيعون طليعة مسيرتهم من الشهداء الأبرار.

يتحرك الابن بجواره وتشغل الابنة في ركن آخر وتبدو على البعد الزوجة، تحيره على الدوام، كم هي جميلة وقادرة على إثارة اهتمامه وإعجابه، جميلة هي من كل النواحي كما كانت دائمًا. هل يمكن أن يضحّي بهناءة هذه الأسرة؟ أو يعقل تعريضها للمهانة بالقفز للمجهول، دون حساب لعواقب أو تبعات أعمال عنترية رومانسية قد تلهب حماسة الكثيرين، ولكنها في الواقع محدودة القيمة وربما جاءت بالمردود السلبي على المدى البعيد. ليس أقلها تأخير تحقق النموذج الديمقراطي الحر الذي لم يفدوا إلا لتحقيقه.. ليس إلا. لذا فلابد من المسارعة بإدانة مثل هذه العمليات التي تعوق من تقدم العمل وتؤخر من تحقق البرامج المعدّة للتطبيق الديمقراطي وحرية التعبير منها في المقدمة.

لكن لا شك أنها تضايقه بل تؤرقه، مسألة وجود تلك القوات بملابسهم وعتادهم الثقيل، وجوههم الغريبة أمر قاس يشق على النفس.

لم يسمح لنفسه بالتمادي والاستسلام لمثل تلك المشاعر السلبية، فكيف يترك نفسه فريسة لمشاعر وأحاسيس لا عائد منها سوى إفساد الاستمتاع بكل لحظة من سهرة الليلة المثيرة على القناة العاشرة. وبإمكانه دائمًا ممارسة ما يروى غليله من أعمال وأفعال الجهاد المقاومة بكل أشكالها، بطيفها الكامل من خلال مؤسسات المجتمع المدني؛ فهناك منظومة بل طيف كامل من أعمال المقاومة الإيجابية المجدية والمفيدة، العملية والجدية، المكثفة محورية ودون إراقة دماء أو الدخول في محظورات أعمال الإرهاب. لدينا الندوات والاعتصامات والاحتجاجات والمسيرات والتنديدات والملصقات والحلقات النقاشية والندوات الحوارية، طبعًا هذا بخلاف الدعم المادي والمعنوي بلا حدود، وكلها بلا تلطيخ الأيدي بدماء الأبرياء أو تسميم وإساءة المناخ الاستثماري والاقتصادي بما يؤثر سلبًا على معدلات الليالي السياحية والأشغال الفندقي، مما يؤدي لتدني العائدات من العملة الصعبة واضطراب وعدم انتظام تدفق رؤوس الأموال، ما يؤدي بدوره للمزيد من نفس النتيجة. والوضع على العموم معيق للتصدير معوق له، ويصادر في مجمله من حق الأجيال القادمة في الرفاهة والرغد. وحذاري من التورط في أي مما يمكن أن يسيء للبنية التحتية للاقتصاد الوطني، أو ما يضعف من ديمقراطية وشفافية القرار الاقتصادي، فضمان عافية الاقتصاد الوطني هي المفتاح لرفاهة المجتمع، وهو هدف لا يليق أن نختلف حول أهميته وأولويته المطلقة، ولا يتأتى إلا من خلال تحقيق معدل تنمية سنوي لا يقل عن ٨٧٪ بحال وإلا دخلنا في

دوامة ما يسمى بالتنمية السلبية، وهو في حقيقته تدهور وتخلف؛ حين يختلف معدل التنمية عن معدل الزيادة في السكان فيسبق الأخير الأول وهنا يمكن تصور أي مجموعة من السيناريوهات كلها شر وأحلاها مرّ. التحدّي الحقيقي هو خوض معركة التنمية والديمقراطية وأولًا وأخيرًا الشفافية.

وفي الوطن البعيد كان جنود الاحتلال يداهمون البيوت، ويهتكون أعراض النساء والفتيات وينادون بضبط النفس ويعرضون هدنة لوقف إطلاق النار. لكن المشهد الرئيسي من الملحمة كان في صباح يوم مشمس. إذ ينصرف جنود الاحتلال الأجنبي في ذلك البلد المستضعف المستباح لبعض شئونهم فأمكن للسكان المحليين مغادرة البيوت، ينسلون على عجل مثنى وفرادي، يلتئم جمعهم في ساحة البلدة ويشأ الحور بين من يتصادف تواجدهم؛ أحوال وظروف، أخبار ووقائع، وفيات وسفر ومواليد ومشاكل، يشجر الحديث ويمتد الحوار ويتصل نابضًا فيتجسد تاريخًا في كبسولة.

تتناهى إلى مسامعه أخبار السابعة، كم كان حريصًا عليها في الأيام الخوالي، تحمل أخبار القوات الدخيلة وقد أضحت على مشارف المنطقة على أبواب الحيّ الهادي الذي فيه عاشوا ويعيشون. لكن للأمانة، والحق يقال أنهم أعلنوا مرارًا وأسقطوا المنشورات ووزعوا المذكرات بأنهم لم يفدوا إلا لتحسين الموقف والصورة فيما يتعلق بالمؤشرات الإيجابية والمعدلات المتفوقة المتقدمة. حسنًا فلننظر للجانب

المضيء في الأمر؛ هذا الاحتلال حررنا وأطاح بنظام فاسد بكل المقاييس، وطبعًا لم يكن بإمكاننا نحن أن نقوم بهذا بالواجب.

كل ما عليه الآن، باعتباره رب الأسرة، التهيئة النفسة للزوجة والأبناء للمرحلة الوشيكة؛ وصول قوات الاحتلال لذات الوحدة السكنية، وقد ينتهي الأمر بهم أن يختاروا البقاء لفترة قد تطول أو تقصر كلها أمور في علم الغيب ولكن علينا أن نحافظ على البرامج الموضوعة وضمان ثبات معدلات الأداء تحت أي ظروف هذا شعار المرحلة، وفي نفس الوقت فإن لدينا طيف كامل من الألوان وأشكال المقاومة والرفض.. الخ. العدو الأساسي الخطر الرئيسي هو التنمية السلبية، أن نصبح كالسائرين للوراء. علينا أن نفطن لذلك، وحذاري أن ننسى هذه الحقيقة أو تغيب عن أذهاننا للحظ. كان ذلك فحوى ما نقله إليهم حين استدعاهم على إفطار عمل عاجل، وبيّن لهم البشاشة واللطف عند لقاء من يزورهم من جنود الاحتلال، وشدد على ضرورة معاملتهم بالأسلوب الحضاري الراقي، فمن غير المقبول أن تكون الجهامة هي كل ما لدين لنقدمه لأولئك النفر من الجند وقد تجشموا ما تجشموا، وكابد منهم من كابد ضمانًا لغد أفضل للوطن ولنا ولأبنائنا. لدهشته البالغة لم يتطلب الأمر كثير عناء أو إقناع، فدق أعرب ثلاثتهم أن الأمر لا يعدو أن يكون من بنات خياله وهن كثير. وأرجعت الزوجة ذلك إلى متابعته التي لا تفتر للأخبار على الهواء من الفضائيات واختلف الصغيران، ففي حين ذهبت الابنة لنوعية قراءات أدمنها عمره، بينما اعتبر الابن الأمر نتاج طريقة فكر عفا عليها الزمن لكنهما اتفقا على

مدى عمق أزمته إذ يلتبس عليه من جاءوا لتحريره ومن جاءوا لاحتلاله، وطمأنه الجميع وأسدوا النصح أن يعني بنفسه جيدًا، ويتجنب التيارات الهوائية ففيها برد أكيد.

فكّر المواطن فلنزاول في مواجهتهم نوعًا من الممانعة على أية حال هي النغمة الوحيدة المتاحة على لحن المقاومة التي لم تجرم أو تؤثم بعد، فهي لا تعد إرهابًا، قانونية مائة بالمائة. وعليه وفي إطار المواثيق الدولية، وجد المواطن أن بإمكانه أن يترك قفلًا حديديًا ضخمًا على الباب من الخارج، أو إغراق البيت في إظلام تام بإطفاء كل الأنوار ما يوحي بعدم وجود أحد في الداخل، فيعود الغزاة أدراجهم مبتعدين، لكنه سرعان ما استبعد الفكرة كونها ستحول أفراد الأسرة في الداخل إلى موقوفين.

فكر المواطن أيضًا أنه من المناسب أو المفيد أن يترك لهم، لدى أحد الجيران، بطاقة موجزة رقيقة، يعتذر فيها عن استقبالهم وقد جاءوا بالمدرعات والمروحيّات، لدواع غير خافية. كان المواطن أكيدًا أن البطاقة ستحسم الموقف؛ إذ سيجد الغزاة الملاعين أنفسهم في حرج بالغ بين اعتذاره الرقيق المهذب عن استقبالهم، وإصرارهم الوقح الصفيق على الزيارة.

استقر فكر المواطن في النهاية على أنه من الأفضل ألا يكون في انتظارهم بالمرة حين يصلون بعد دقائق كما تؤكد أحبار التاسعة تأتي مباشرة من الأستوديو؛ هم على أبواب المربع السكني بالفعل وعلى

الهواء. فكر المواطن بأنهم إذا حضروا ولم يجدوه سيصعب الأمر عليهم ويتعذر دخولهم الشقة لغياب رب الأسرة، وإلا وقعوا في إشكالية أساسية وتناقض رئيسي مع ميثاق حقوق الإنسان الصادر في جنيف وهو الأصلي بالتأكيد وليس له فروع أخرى، ويقطع باستحالة اقترابهم من البيت في غياب رب الأسرة.

كالعنقاء تنهض دومًا من بين الركام روح الأمة متمثلة في نفر من شبابها، قاموا رفضًا ودفعًا للاحتلال في تلك البقعة البعيدة القريبة، فبعد أن آيس الجميع وأيقنوا من المصير أمام جحافل تلك القوى الغربية فكريًا واقتصادي، وقد باتت قوة احتلال عسكري غاشم واقع فهل من سبيل للنصر والظفر بعد كل هذه الهزائم والانكسارات؟. هل هم محقّون إذ يعيدون الكرّة على عدوهم بالرد الصادق أملًا في نصر من الله وفتح قريب. هم يدركون أن الحل لا يكمن في المزيد من الاستكانة والخنوع؛ بل في شيء من الثبات والصمود. يتبنون فكرًا وعملًا مختلفًا عن آخرين وهنوا فهزموا دون قيد أو شرط. هم يفهمون الأمر بشكل مغاير؛ ينطلقون من حقيقة بسيطة ولكنها عصيّة على بعض الألباب والأفهام؛ وهي أن هناك حدودًا لقوة الطاغية ومدى لا تستطيع تخطيه في التعامل مع الشعوب المقهورة، والتفاعل مع العالم الذي يقف متفرجًا حتى الآن سيجد المحتل نفسه وبصفة مستمرة أمام معارضة داخلية متعاظمة علاوة على ضغوط خارجية متزايدة؛ وهو ما لا يتأتى ويستقر ويرسخ إلا بتصاعد وتواصل الضربات المباركة. صدق أو لا تصدق؛ للقوة والطاغوت حدودًا ، أمّا المقاومة فلا حدود لها؛ هي كالمنجم لا ينضب

كالمعين من المعاني لا ينفذ. دائم العطاء، أزلي التولد، أبدي التمدد والتجدد.

استقر فكر المواطن العقلاني، أنه وعلى الإجمال، فللمقارنة الواعية بين أية فكريتين، علينا أن تبدأ بتدبر واعتبار الإيجابيات والسلبيات في كل منهما كل فكرة ما لها وما عليها، تحليل الكلفة والعائد لكل بديل يوصلنا إلى الحل الأمثل، عندها نتبني الفكرة أو الموقف ذو العائد الأعلى والمردود الزائد. في الوقت نفسه فقد تفرض علينا اعتبارات السلامة عدم مواجهة الاحتلال، ولكن لا يعقل أن يكون البديل هو الارتماء في أحضانهم والمبالغة في التودد إليهم. لابد أن هناك مسارًا آخر يتعين أن تتخذه العلاقة بينهما، بين المواطن والاحتلال، باعتبارهما حقيقتان واقعتان وعليهما أن يتعايشا سويًا على أرض واحدة. العقل وهو زينة كما يقولون يقطع أن بالإمكان تشكيل (اللجنة الوطنية لحماية حقوق المواطن)، وهي كما هو واضح من الاسم تتمتع بكافة الحصانات القانونية، بقوة القانونية ولوائح المجتمع المدني بما يمكنها من الحركة الحرة، وتنظيم المسيرات والتجمعات واللقاءات ودون اعتراض أو إعاقة من سلطات الحكم في الدولة أو قوات الاحتلال. وبالحوار، والحوار وحده، مع سلطات الاحتلال ولجان الإدارة المدنية المؤقتة التي تشكلت على عجل في أعقاب سقوط العاصمة بهدف وغرض وحيد؛ توفير أفضل فرص حياة لأهلنا ومواطنينا، رفاقنا من دافعي الضرائب، مع العمل، الجاد المخطط والمبرمج، على استعادة حقوق أهلنا وشعبنا قطعة قطعة، كل خطوة

تقربنا من الهدف، فباستعادتها كلها كاملة غير منقوصة نصبح أحرارًا ويتحقق الاستقلال، رغم ما قد يبدو ظاهريًا من أننا محتلون، ذلك أننا متفقون حول أنهم لا يمكن أن يأخذوه ويمضوا بعيدا، أعني الوطن؛ سيظل أبدًا في مكانه لا يتحرك، ولن يتغير موقعه بحال.

نبيل صلاح الدين

إبريل ٢٠٠٤

سوسيولوجيا النظافة

رقص قلبه بين ضلوعه فرحًا حين تبين أن المهام المطلوبة منه في العمل الجديد الذي التحق به مؤخرًا بعد وساطات عديدة من كبار القوم، هينة واضحة المعالم، ربما أسهل كثيرًا من كل توقعاته. مجرد الإشراف على نظافة تلك القاعة الفخمة الفسيحة المخصصة للحفلات واللقاءات الموسّعة والاستقبالات وهو ما لا يصعب تنفيذه كما ترون. بدا الأمر بسيطًا سهلًا للغاية، كما لو أن الحظ قد ابتسم أخيرًا بعد طول عبوس.

من المؤكد أن ما ساقه من وساطات قد فعلت بل آتت أكلها؛ ها هو يجد وظيفة مرموقة، والمهمة أيسر ما تكون؛ مشرف نظافة يعمل تحت إمرته أفراد عديدون، والأهم أن المطلوب محدود للغاية محدد تمامًا؛ مجرد السهر والعمل على الحفاظ على نظافة وحسن ترتيب القاعة، مساحة محددة معينة يمكن أن يخصص لكل متر فيها شخصًا مسئولًا عن نظافتها مسئولية مباشرة بحكم وجوده في الموقع. كان ذلك بالطبع من شطحات التفكير، حين تذكر ضرورة نجاحه في القيام بالمهمة المطلوبة، خاصة وهي على ما تبدو عليه من اليسر والسهولة فلا يعجز عنها سوى العاجز قليل الحيلة.

كانت الخطوة الأولى في وضوح الشمس؛ اختيار فريق العمل، انتقاء الأفراد المعاونين الذين ستقوم على أكتافهم مسئولية تنفيذ المهمة،

المنوط بهم تحقيق الهدف. هم قلب العمل وروحه. أعلنت الإدارة عن طلب الأفراد حسب الاحتياج، وتقدم العديد من المرشحين لشغل الوظائف الشاغرة.

كان أول ما تميز به القادمون للمقابلة هو تدنّي المظهر العام والهيئة المزرية، لكنه أرجع ذلك لكونهم من العاطلين وبلا دخل، ولكن بالتداعي المنطقي وبالتدفقات النقدية الداخلة المتوقعة في القريب العاجل من جراء التحاقهم بهذا العمل شديد البساطة يمكن علاج الأمر. لكن حتى وبعد أن طلب إليهم صراحة بذل المزيد من الجهد لتحسين المظهر لم يحقق أبدًا الحد الأدنى كنتيجة مبتغاة. بمرور الوقت واستمرار ورود نفس النوعية من الأفراد المتقدمين، اعتبر أن هناك ارتباطًا شرطيًا بين المستوى الاجتماعي أو الموطن الأصلي وبين مستوى ونوعية العمل أو الوظيفة التي يتقدم لشغلها الشخص المعني. بمعنى أنه اقتنع في خاتمة المطاف أن لا يمكن أن يتقدم لشغل الوظيفة نوعية خلاف ما تقدم بالفعل.

من ناحية أخرى فهم ورغم تواضع المظهر وتدني مستوى النظافة لديهم، إلا أنهم وبروح المهنية الحقة لاشك قادرون على إنجاز المهمة فهي أولًا وأخيرًا مجرد الحفاظ على مستوى نظافة وحسن الترتيب في تلك المساحة المحدودة بالحوائط الأربعة. كذلك فإن الدقة في تحديد المهام، والوضوح في توصيف الأعمال المطلوبة يجعلان الأمر هينًا وفي متناول الأفراد، وإن تواضعت قدراتهم.

جاءت العقبة الأولى، وكانت متوقعة بالفعل – العجيب أن هناك دومًا عقبات أمام أي مسعى أو سعي أو مسيرة أو مسار – وهي ما تبين سريعًا من محدودية قدرات وإلمام الأفراد بمبادئ القراءة والكتابة برغم كونهم من حملة المؤهلات، لكن أمكن تمرير المعالم والملكات الضرورية بالشرح الشفهي المبسط والبيان العملي. تبلغ الجميع بالأعمال المطلوبة، وأصبح الطاقم على إلمام ظنّه كاف وبدأ العمل بالفعل وسط توقعات متفائلة بتحقيق نتائج باهرة باعتبار التأهيل المكثف الذي تلقاه الأفراد.

لكن النتائج جاءت مشوبة بما أفقدها قيمتها الحقيقية. كان المشهد العام نظيفًا مرتبًا بشكل مقبول، كل شيء في مكانه بادي النظافة، ولكن كانت هناك رائحة نفّاذة غير مستحبة غلّفت جو المكان لتفسد كل استمتاع باللحظة. في البداية لم يتنبّه لذلك الكثيرون في غمرة الإحساس بحسن ترتيب وفخامة المكان وعاصفة المعطرات التي طبعت أرجاء القاعة. لكن بمضي الوقت بدأ الضيوف في الإحساس فالتململ فالتذمر فالشكوى.

طفت على السطح اقتراحات عديدة باستخدام المزيد من معطرات الجو الأكثر فاعلية بأنواعها العديدة المختلفة، وهو ما تم بالفعل وجرى استخدام أكثر من عشرين نوعًا من المعطرات ومزيلات الروائح. ولكن تطلب الأمر استخدام نوعيات مستوردة من بلاد الخارج للحصول على رضا الأغلبية، لكنه ظل على إحساسه المبدئي بأن الرائحة ما زالت

معلمًا أساسيًا في المشهد العام، تشيع من حولهم في كل مكان، تؤرقه تقلقه. فهي لا تعني سوى أن العمل لم يتم، والمهمة لم تنجز.

بدأ باستدعاء الأفراد العاملين أنفسهم لبحث الظاهرة المحيّرة. بمجرد ورود طلائعهم خيمّت على المكان نفس الرائحة دون تغّير يذكر، فاستنتج الترابط العضوي بين الحدثين، وأدرك حجم المأساة وهول الخطب. كانت بالفعل لحظة الحقيقة المؤلمة التي عليه أن يواجهها، إذ أن المشكلة في الأفراد ذاتهم المنوط بهم تنظيف المكان؛ فيهم أو هم المشكلة؛ انبعاثاتهم فضلاتهم إفرازاتهم نفاياتهم هي ما يتعين مواجهته بحلول جادة ضمانًا لمكان نظيف وهواء أنظف.

خطط لمواجهة الموقف على محورين رئيسيين رفع الوعي العام بالنظافة لدى الأفراد من خلال نشر التعليمات المكتوبة حولهم في لوحات إرشادية على الحوائط.. نرجو عدم إلقاء مخلفات، ممنوع البصق، قاعتنا نظيفة جميلة.. إلى جانب تفعيل حملات التوعية عن مزايا النظافة الشخصية وفوائد الاستحمام وقد حققت في الواقع بعض النتائج؛ إذ أصبح الموقف في بعض الأيام محتملًا مقارنة بالأيام المستحيلة فيما قبل اتخاذ حزمة التدابير الفنيّة. لكن المستوى المطلوب تحقيقه والمتفق عليه عالميًا لم يكن متحققًا في أي وقت من الأوقات. وعليه كان لبد من اللجوء لحلول أشد جرأة وتدابير أكثر راديكالية؛ الإشراف المباشر على نظافة الأفراد.

عليه أيضًا باعتماد المدخل العلمي لحل المشكلة والقضاء على الظاهرة، أول الخطوات هي قاعدة البيانات التي ستقوم عليها أعمدة

الإجراءات العلاجية. توزيع استمارات أو نماذج لملء البيانات، مسح اجتماعي محدود للأفراد محل البحث تم إجراءه على عجل ودراسة نتائجه بالسرعة الواجبة أظهر مجموعة من الثغرات ومواطن الخلل التي يتوجب علاجها والتصدّي لها بتدابير أشد فعالية. كان منها عدم وجود سكن ثابت عنوان محل إقامة، ضعف الإلمام أو عدمه بمبادئ النظافة الشخصية أو أهمية الاستحمام والاغتسال بين الحين والآخر. بدأ في الإحساس بأن الأمر أصبح خارج نطاق المسح باعتبارها ظواهر اجتماعية مجتمعية اقتصادية كلية شاملة، عندها تأكد من حتمية اقتحام المشكلة بحلول أكثر جرأة واشد راديكالية؛ الإشراف اللصيق على النظافة الشخصية للأفراد العاملين بالقسم.

بأيلولة مسئولية نظافة الأفراد إلى الإدارة، كان لابد من إعادة النظر في فلسفة عمل وأسلوب أداء الإدارة. فلم يعد الأمر قاصرًا على تنظيم وترتيب المكان، بل أضيف إلى ذلك القيام على نظافة الأفراد أنفسهم، وضمان ألا يخّلف القادمون لتنظيفه وراءهم ما يسوء من مخلّفات مادية أو معنوية.

تجربة الصين مع الأمية مثيرة، الملايين مطلوب تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة أو محو أميتهم على أقل تقدير. بعد أن أعيتهم السبل لم ينفعهم سوى حل واحد، (كل واحد يعلم واحد)، أي أن تنحصر مسئولية تعليم فرد محدد بين يدي فرد آخر محدد بنفس الوضوح. ولك أن تتخيل سهولة الأداء، بل والإعجاب بدّقة النتائج مسبقًا. كان ذلك هو المدخل

الذي قرر أن يتبناه الموقف؛ أن يكل الفرد المعين بالقيام على ضمان نظافة الفرد الفلاني. مسئولية محددة والمسئول معين، عندها تكون عوامل النجاح مضمونة محكومة. ارتاحت نفسه للفكرة وأيقن من الخلاص من ذلك الهاجس البغيض فمن غير المتصور أن يعجز فرد عن القيام والسهر على نظافة فرد واحد آخر لا أكثر، إن بالغسل جيدًا أو بالرش. بمساحيق مخصصة لهذه الأغراض.

فكر في تخصيص جانب من القوة البشرية المتاحة من العمال الحالية للقيام بأعباء المهمات الجديدة، لكنه استبعد الفكر لسببين أولها أن الأفراد المذكورين هم جانب من المشكلة ذاته، ومن جانب آخر لأنهم الأفراد المطلوب ضمان نظافتهم. لم يتبق أمامه سوى التفكير في طلب قوة عمل إضافية. ولكن كيف يمكن ضمان نظافة القادمين الجدد، وكيف يمكن تسويغ طلب أفراد إضافيين رغم أن المهمة تجري بنجاح مرض منذ فترة وكل شيء على ما يرام.

عند هذه النقطة بالتحديد أصبحت المشكلة شخصية محضة، ولا علاقة لها بالعمل إطلاقًا. هناك فارق واضح بين المشكلة والإحساس بها بمعنى أنه قد تكون المشكلة واقعة فعلًا ولكننا لا نحس بوجودها، فهي في حكم غير الموجودة. تنشأ المشكلة وتوجد فعلًا في لحظة الإحساس بها. مشكلته أن الجميع مجمعون على الرضا عن النتائج المحققة، وحده الوحيد غير الراضي عن النتائج المحققة. أطلت فكرة الاستقالة من أول وظيفة رمزًا لمسيرة تكاد تبدأ بفشل مهين والأنكد؛ في مهمة يصعب تصور أيسر منها، لكن عاوده التعقل أمام اعتبارات احتياجات الحياة

اليومية، فبإمكانه الاستغناء عن كثير من الضروريات الأساسية لكن من الصعوبة بمكان تصور إمكان التخلي عن قائمة طويلة من الكماليات الرئيسية.

أدرك بالحكمة البسيطة أن كل ما عليه لا يزيد عن مجرد التخلي عن حاسة الشم لا غير، ولو لفترات محدودة أو خلال ساعات العمل، كان قرارًا صعبًا على أي حال ولكنه اتخذه بشجاعة دون وجل، بالتخلي عن هذه الحاسة لفترة محدودة لن تكون هناك مشكلة بالمرة. لكن تعطيل هذه الحاسة الطبيعية يحتاج لتفكير؛ هل هو تعطيل مؤقت، أم بتر تام لهذه المنحة السماوية. التعطيل الوقتي، وهو الأقرب للمنطق، يتطلب سد منافذ التنفس بأي مواد معيقة لنفاذ الرائحة، قطع من القطن أو الورق أو ما شابه، عليه أن يقتنع بحقيقة واقعة ملموسة بحواس أربع ولينس الشم ولو مؤقتًا. ظل على حيرته طويلًا، ولكن عندما هون أحدهم الأمر عليه مؤكدًا استحالة ظهور ذلك في الصور سواء كانت فوتوغرافية أو تليفزيونية أو حتى ديجيتال، عندها قرّ نفسًا وأدرك كم كان مخطئًا، وثاب إلى رشده سريعًا.

نبيل صلاح الدين

ديسمبر ٢٠٠٤

حكاية رمادية

جمد الطعام في حلقي وتوقف البلع .. لم يكن للأمر أسباب فنية .. أعني منسية .. ولكنها اعتبارات سياسية، وتنصرف لمعناه العام؛ أي كل ما يهم الناس وتعلق بشئونهم في كل حال وحين، ذلكم كان حالي حين ألقيت نفسي حيال أمر عجيب، حقيقة يصعب ابتلاعها .. هذا الرجل الماثل أمامي مصورًا في جريدة الصباح .. فلان الفلاني يعترف بارتكابه جريمة.. هي بالتحديد.. لم يقترفها سواي.. لم يفعلها أحد غيري.

عودة للطعام.. المحتبس في الحلقوم، أقول؛ كان لابد من شرب الماء وبقوة، سرعان ما عاد الأمر لسابق عهده وانتظمت الأنفاس.. لكن الأفكار أطاحت بها صدمة يصعب وصفها.. حقيقة صاعقة.. بل واقع مدهش. لم يدع هذا المأفون أو المجنون أنه فعلها، وهو أول من يعرف خلال ذلك، يعلم الله كم عذبني الندم عل تلك الفعلة، فإن لا ارتكب من الجرائم إلا أقل القليل، أعني أني مقل فيها، ما أمكن، بشهادة الجميع.

وغلبني فضول طاغ.. يجب أن أستحلي الأمر، لابد من لقائه، كيف يزعم أنه أتى فعلتي.. لم يعترف بمحض إرادته بجريمة لم يرتكبها مع كل ما يعنيه ذلك من تداعيات وخيمة، كان ذلك السؤال يملؤني ويملك علي كل تفكير عندما سعيت للقائه.

كان «القسم» كابيًا شبه خال في الوقت المتأخر من الليل، أو المبكر من الصباح.. وكان الصول نائسًا مما يكره معه إيقاظه، وبرغم ذلك أبدى مرونة ملحوظة بعد بعض الجرائم الطفيفة، وسمح لي بلقاء الرجل.

كان مختلفًا عن صورته في الصحيفة.. غريب الملامح، نابت الذقن، زائغ النظرات، يبدو بشكل عام عاقلًا متزنًا.. لكنه على الأرجح مخبول.. بدا كم ينظر لشيء بعيد وهو يردد بصوت كسير أن لا يدري لم فعل ذلك.. ماذا يقصد (الاعتراف)، أم (الجريمة)؟.. وكمن لم يسمع السؤال، واصل حديثه المختلط.. حار فكري في تلك المتاهة وشردت طويلًا، بيد أنه أعادني للزمان والمكان بقوله كأنما يحدث نفسه.. أنه لا يدري إن كان فعل ذلك.. فقد كان هناك أناس كثيرون، ليس لديه إجابات.. بل جميعها أسئلة أو.. تساؤلات.

عند خروجي.. وجدت الصول يغط في نومه أفضل.. أشفقت أن أوقظه مجددًا.. لم تكن بي حاجة لذلك، فقد كان تقرير الحادث أمامي مفتوحًا يدعوني لقراءته.. ليس فيه ما يهمني سوى ما خلص إليه في فقرته الأخيرة:

«.. ومن شبه المؤكد أن الاحتمال قائم، وبقوة، على إمكانية قيام المذكور بهذا العمل.. ونرجح غالبية القرائن تورطه في الحادث».

يا إلهي.. أليست هناك أدلة؟؟ على أي حال.. وفي وجود مثل هذا الدليل الحكومي الدامغ ما يقطع كل شك..، وبإمكان ضمير المستنفر.. أن يقر.. وينام.. وعند مغادرتي، حانت مني للسماء نظرة.. فما أدري أكان الوقت ليلًا.. أم نهار؟؟

كانت ليلة غريبة.. جافاني النوم.. لم يأت إلا لمامًا.. عشت حالة من اللايقظة والنوم.. شابتها مسحة من التنبه.. زارتني رؤى وأطياف تلك

الجريمة تكرارًا..، وفي الصباح قمت من يومي متأهبًا. كان هناك أمر يتلبسني.. مهمة يتعين إنجازها سريعًا، انفت خارجًا فعلى القيام بجريمة جديدة.. بأسرع ما يمكن.. بل قبل أن تغيب، شمس النهار..

نص **ديسمبر** ٩٧

ريري

أوصتني قبل أن تخرج على عجل بعد تليفون الصباح المعتاد، أن أقوم بإصلاح (السيشوار)، ليكون جاهزًا حين تعود، ونظيفًا كما أكدت بنظرة من عينيها أعرفها جيدًا .. وقبل أن تغلق الباب التفتت لترسل قبلة حارة وغمزت بعينها تذكرني بضرورة أن يكون الغذاء جهازًا عند عودتها بعد الرياضة اليومية في الثالثة عصرًا. مسكينة، فهي لا تدري أي مفاجأة مذهلة، بل صدمة قاسية في انتظارها حين تعود، لن يحدث أي شيء مما طلبت، ستجد (السيشوار) على حاله، لمي ميس ودون إصلاح، والطعام كما هو في الثلاجة حيث تركته بعد عشاء الأمس. لا تدهش يا عزيزي، فالمواقف الحادة والجادة، بعكس ما عرف عني، هامة وأساسية في المواقف الحاسمة.

أعترف أن الأمر لم يتعد محتملًا، وكفاني ما لقيت، أصبح وضعًا لا يطاق كم حذرتها من لقاء ذلك الوغد المتصابي، طالما شكوت مما أسمع وأعاني من لمز وهمسات، بل ما يبلغني من أقاويل، أعرف أنها مجرد شائعات موتورة حاقدة من «شيرين» أو تلك الملعونة سوزي، وأعرف ما يغلي في عروقهما من غيرة وحسد، وفي قلوب كثيرات أخر، خاصة وأنت تحصدين ألقاب الجمال والأناقة، وكلهن لا أكثر من شماركات أو مجرد حضور.

أعرف جيدًا أنه مجرد «بوي فريند» وأن الأمر لا يخرج عن رياضة المشي، أو بعض الهرولة، وكلها في مضمار العدو المليء

بأعضاء النادي، دردشة عامة لاتزيد عن ساعة على الأكثر.. في موضوعات عامة.. الدش، برنامج «مفيد فوزي»، أو بعض المتاعب الشخصية أوالزوجية بحكم الصداقة، كله في التراك يا عزيزتي.. فلا تقلق من هذه الناحية..

أما ما يقلقني حقيقة، ولازلت الصديق المقرب، فهو ما بلغني أمس والأمس فقط، كانا يرقصان في حالة انسجام عال «تشيك توتشيك» حتى الصباح، وأنا نائم بالبيت بعد تنفيذ برنامج عمل وضعته بدقة قبل أن تخرج في كامل زينتها. كم كانت جميلة، ولامعة العينين وهي تؤكد أنها لابتدأن تمسح كل الموجودات في حفل زفاف «ريهام» ابنة أعز صديقاتها.

رغبتي في إسعادها، بلغت أبعادًا لم تعرف من قبل، حتى عندما أخبرتني بصراحة ووضوح، لا تدهش فدق تعاهدنا فيما بيننا يا عزيزي على الصراحة المطلقة، إنها غير راضية أو مكتفية جسديًا، ورغم أن قدراتي الزوجية ظلت محل تندرها خلال سهرات جمعتنا بالأصدقاء المقربين بالطبع. أؤكد لك أني لم أغضب إطلاقا، على العكس كان رد فعلي إيجابيًا وموقفي عصريًا بحق، حين استشرت أكبر الأطباء المختصين.. ورغم تأكيدهم جميعًا بأني طبيعي تمامًا، فإني ما قصرت في إحضار أغلى وأرقى الأدوية والعقاقير لتدارك الأمر، ورغم ذلك كله ظلت على تبرمها، وغضبها ينفجر دون مقدمات أو مبررات.

كان عليّ أن أكون حازمًا.. لا يصح ترك الأمور بهذه الميوعة، فعندما أحضرت بعض النشرات الطبية عن أجهزة تعويضية ورغم أن

الكثيرين، أخشى أن تكون منهم، قد يرون في الأمر ما ينتقص من رجولتي، فإني لم أتردد لحظة واحدة في إحضاره بالطائرة على الفور كان منطقها بسيطًا مقنعًا، فما حيلتها عند الاحتجاج في غيابي!! ، ورغم أنها غالبًا ما تستعين بها في وجودي، وحتى في لحظاتنا الحميمة، كأداة تكميلية لا أكثر، لضمان تحقيق النتائج المرجوة، فإني لم أعترض يومًا.. لا أبغى سوى سعادتها، قلت ذلك كثيرًا حتى مللت تكراره.

أما هذه النزوة، فعمرها قرابة خمس سنوات، من الطبيعي لرجل عصري متدين مثلي، أن يتعامل مع الموقف بعقل بارد، والابتعاد عن الانفعال المجنون غير المحسوب، وإلا فما الفارق بين ذلك القهوجي الذي طالعتنا الصحف، كيف قتل زوجته، إذ قذفها بموقد الجاز المشتعل عندما تأخرت في إعداد العشاء، والآخر الذي رماها بماء النار لمجرد علاقتها بآخرين. للأنثى نزواتها يا عزيزي، ويعرف من خبر النساء مثلي، أنها (النزوات لا المرأة بالطبع!!) تتخذ منحنى عجيبًا مستغربًا في بعض الأحيان. هنا يتعين عدم الاندفاع، قد لا يخرج عن صداقة بريئة، أخشى أن تكون من حفريات زمن يضم أي علاقة بين امرأة متزوجة وأي رجل خلاف زوجها بالخيانة أو نعوت أخرى يعف عن ذكرها لساني، أو ممن لا يؤمنون بالصداقة بين الرجل والمرأة كلية.

عليك أن تفهم أن حاصل الأمر بين الاحتمالين، قد تكون في حاجة لصداقة حميمة، ولا علاقة للنوع أو الجنس بالأمر، فقد أثبت علم النفس الإكلينيكي بأن علاقة حميمة، واحدة على الأقل، مطلب أساسي

وضروري للتوازن النفسي للفرد، أو هيا باحثة عن رمز أبوي.. افتقدت الحنان الأبوي منذ الطفولة، وهو سب كاف لأن تبحث عنه الآن.

لكن لا تنس أني شرقي، لن أسكت بالطبع، معرف عني الحزم منذ الصغر، سأبلغ خالي الدكتور على الفور، أرجوك لا تضحك.. فليست نكتة، المسألة ببساطة أن أباها، وقد ناهز السبعين، غارق في أذنيه، في حملة إعلانية لتلميع نجمة سينمائية شابة واعدة، يرتبط معها بعقد احتكار، مع ما يعنيه ذلك من جهد وسهر وانشغال، خاصة وأنها ما تزال في بداية الطريق، مما يفرض عليه الوقوف إلى جانبها بخبراته وعلاقاته المتشعبة في هذا البحر الزاخر بالحيتان، ودعمها بكل الإمكانات لتحقيق ما نتمناه لها جميعًا، فلا شك أنها موهوبة وجمال وحضور. أما الأم، فهي أم عاقلة، وليس أدل على ذلك من جهدها الذي لا يفتر، وعملها الدؤوب ليل نهار في الجمعيات النسائية والخيرية والدولية منها بشكل خاص، لا يخفي عليك ما يستتبعه ذلك من اجتماعات مكثفة، غذاء أو عشاء أو حتى إفطار عمل، حلقات نقاشية في تلك الفنادق، سيدة مجتمع ن الطراز الأول، بل من صنف نادر لم ليعد موجودًا، أما ما يثار هنا وهناك من لغط حول علاقاتها وعشاقها، فهو من أمراض المجتمعات المخملية، ولا يستحق مجرد الرد عليه.

كرهت أن أزعج أيا منهما، فلاشك أن لديه ما يكفيه، وفي النهاية ما حيلتهما أمام حالة أو أزمة نفسية بالغة الحساسية والتعقيد.. ليس لها إلا العلاج النفسي، وهو ما توصلت إليه بشكل قاطع من خلال مراقبتي لهما على البعد، العلاج الإكلينيكي، مجرب ومضمون.. هي باحثة عن

الرمز الأبي، رايتهما مرارًا يسيران يدًا بيد، شعره الأبيض ينبئ عن سنواته وقد تخطت الستين، ربما سبعين، صحيح أن سمعته معروفة للجميع مليونير وزير نساء محترف، هي لا تبحث عن محب أو عشيق، إنما تبحث عن الرمز الأبوي الذي فقدته منذ الطفولة، كان الرجل مشغولًا باكتشاف وتبني باقة من النجمات الناشئات هن كواكب اليوم.

أما خالي الدكتور فمن رجال عصر مضى، نفس الحزم والعزم، حتى قيل أن لا أحد من أبنائه، وقد أصبحوا رجالًا، يجرؤ أن يلف ساقًا على ساق أو يدخن في حضوره، للدقة كلها أقاويل لم تتأكد بعد، أما المؤكد فهو وقفته يوم الحادثة الفظيعة. موقف من الصعب أن أنساه، أو أغفر لها.. يوم امتنعت عن القيام بالفسحة اليومية لـ«ويسكي».. كلبها المدلل، في الحقيقة وللتاريخ، هو إحدى هداياي لها خلال فترة الخطبة ظفرت به من بين أنياب علية القوم بعد منافسة شديدة اثر إعلان في الجريدة عن هذه السلالة النادرة، حسمت الأمر بمكالمة بسيطة وسريعة، مني للسيدة على رقم الهاتف المنشور، وعرضت أن أدفع ضعف أعل عرض يصلها على أن تبلغني بقيمته مساء اليوم نفسه، ورغم فرحة «ريري» بوصولنا وأنا أنا أحتضنه جاءت متحفظة فاترة بعض الشيء، إلا أني أدركت على الفور أنها تتخوف من مسئولياته من جهد وعناء، عندها تعهدت بالقيام بهذا الواجب، وما زلت أقوم به على مدى سنوات طوال دون كلفة أو تبرم، وعندما هاجمتني الأنفلونزا اللعينة تلك الليلة، لم يكن أمام إلا الاعتذار، وطلبت أن يقوم بالمهمة غيري، وكن أصابها مس من الجنون، جاء هياجها وسويًا مبتذلا.. لست

أدري أين تعلمت هذه المفردات، صدقني، عيبها الوحيد عصبيتها وانفلات أعصابها، فلا تعي من أمامها، ويحار الأخير في أمرها، وكيف السبيل لإيقاف هذا الجحيم المنهمر لفظًا وقولًا وفعلًا، لا تنس، أخبرتك منذ البداية وقبل الزفاف، أنها عصبية، وأعرف هذا العيب فيها.

وأن أنسى لا أنسى غضبة خالي الدكتور حين علم بالأمر، انطلق لساعته إلى أهلها في عقر دارهم، ولم تمض سوى سويعات قليلة حتى عاد يقول أنهم كالخاتم في إصبعه، ولا عجب فقد أعاد الأمور إلى نصابها وانتزع منهم موافقة على إعفائي من الأمر في مثل هذه الظروف، وعرض سائقه الخاص تحت تصرفهم في هذا الشأن في أي وقت بالموبايل، ولم يجرؤ أحد منهم على الاعتراض، وعدت للمنزل مرفوع الرأس.

لا أعرف سببًا لاستيائك وعصبيتك الزائدة، حين أخبرتك عن المفاجأة التي أعددتها لها، رحلة استجمام سياحية لقضاء شهر كامل في سويسرا، لا تعجب يا عزيزي فهو جانب من العلاج، ورغم الهدايا التي سبقت السفر لم تكن على مرحها المعتداد، ليتك تراها ساعة صفوها، ساحرة بارعة الجمال، مادونا.. سيلين ديون، ديانا.. لا.. لا هي أجمل بكثير، يكفي أن أقص عليك في عبارة واحدة رد فعل الموجودين في مسبح ذلك الفندق العريق في الريفيرا، اضطررنا لتبديل برنامج الرحلة بالكامل بما يعني ذلك من إزعاج تكاليف ، حين أبدت عدم ارتياحها للون الأبيض الذي يلف المنتج الجبلي الذي اخترته على جبال سويسرا.

حين دخلنا منطقة المسبح، تحولت كل أكرر كل، الأنظار عن حسناوات أوربا الموجودات بالمكان لتستقر علىجميلة الجميلات، كم كنت فخورًا وسعيدًا، كانت حورية في ذلك البكيني الساخن، لا تسل عن ردة فعل الموجودين الأوربيين المتحررين حين تحول البكيني إلى قطعة واحدة، وأنا أدهن جسدها البرونزي بالزيوت.

لا أخفيك أنها لم تكن هلال الرحلة، على عهدها من مرح وانطلاق، ظلت ضيقة الصدر سريعة الغضب فما زالت في فترة نقاهة ن لم أضق بالمرة لغرابة أطواره وتقبل مزاجها، هذا شأن المرضى، ومن الجهل أو السذاجة توقع انتهاء أزمة نفسية بهذا العمق، مترسبة منذ الطفولة السحيقة، في لحظة أو تتبخر كفقاعة، لكن ما يقيني حقيق، هو ما اكتشفته عقب العودة، عند فتح الحقائب عد الوصول، حين لاحظت كمًا هائلًا من الهدايا (الرجالي).. الثمينة.. لعب الفار في (عبي).. وداخلني الشك.

أما رحلتنا في العلاج الروحي، فتلك قصة أخرى جديدة بالرواية، كونها غنية مثيرة وخصبة، تعلمت خلالها الكثير من الحاجة «زيزي».. في الزمالك، وهي التي دون سابق لقاء أو معرفة، سردت علينا المشكلة برمتها.. كأن ثلاثتنا قد عشاها، يا أخي تعرف تفاصيل ما يجري، أو لا يجري في معظم الأوقات، بيننا خلف الأبواب المغلقة، رفضت تمامًا أي مقابل مادي، رغم أنها حققت نجاحًا ملحوظًا ونتائج ملموسة، فبعد جلسات معدودة أقلعت «ريري».. عن المخدرات تقريبًا، والخمر مجرد

مجاملات في (البارتيات).. وحفلات الكوكتيل، وتوقفت تقريبًا عن السهر الليلي حتى الصباح إلا بضع سجائر معدودة من لفافتها المخصوصة، بعضها أنحف من المعتاد، والآخر أضخم من المألوف.

أما الطب النفسي، فحقيقة يصنع المعجزات، يا أخي التطور الأمريكي في هذا المجال، جعل الأمراض المخيفة ذكرى، لم تعد موجودة، يكفي أنه تعرف أنها توقفت، لا أقول تمامًا عن تلك العقاقير الشيطانية بعد أن لازمتها طويلًا، أعرف أنها عادة مرذولة، ولكنها أقدمت عليها بعلمي ورضاي، كانت فترة عصيبة، كم عانت المسكينة، كانت محنة بالفعل وأشار الدكتور شريف، طبيبها وصديقها الأنتيم بتناول قرص صباحًا وآخر مساءً من دواء عجيب.. «أبو صليبة».. كما يسميه حسن السائق حين يحضره ضاحكًا، وتحررنا تمامًا من تلك البودرة اللعينة.

كان التحليل النفسي أيضًا، مرحلة في رحلة العلاج، الدكتورة هالة، لازالت حتى الآن من أقرب أصدقائنا، العلاج النفسي الجماعي، نشاط إنساني نبيل ولاشك.. هنا فعلًا.. بدأن نتبين الجذور العلمية للمشكلة ورواسب من الطفولة، تمكنت من تحديدها، علميًا بدقة وبمنتهى الوضوح، لم يعد هناك مشكلة وتوقفت «ريري»... أو قللت تمامًا من مقابلاتها لذلك الملعون، حتى كانت تلك اللحظة الكئيبة بالفعل حين وجدتني أمام أكوام من الهدايا لذلك الجبان، كنت أظن الأمر قد انتهى منذ بشرتني بذلك الدكتورة «هالة».. فهي من خلال العلاج الجماعي، والتحليل النفسي على إطلاع تام بأحوالها وتفاصيل حركتها اليومية،

أكدت أن الأمر قد انتهى منذ بشرتني بذلك الدكتورة «هالة».. فهي من خلال العلاج الجماعي، والتحليل النفسي على إطلاع تام بأحوالها وتفاصيل حركتها اليومية، أكدت أن الأمر قد انتهى تمامًا على المستوى النفسي في أعقاب مثل هذه التجارب تسميها (عنيفة).. وهي لا ترى بأسًا في الانسحاب المنتظم المدروس، تفاديًا لأي انتكاسات أو ردود أفعال غير محسوبة.

لقاءات تجمعهما، قصيرة متباعدة، بريئة بالطبع وفي الأماكن العامة ما أمكن، تستعيد من خلالها عافيتها وتعود لحالتها الطبيعية، كذلك فلابد من جلسات تحليل نفسي لي أنا أيضًا، لأن المطلوب من كثير، ربما أكثر منا هو مطلوب أو متوقع منها، على أن أكون بجانبها، ودور الزوج المُحب حقًا محوري في هذه الظروف، وحتى نتخطى المحنة.

طبعًا وكما أفهمتك منذ صدمة الهدايا أو لأمس، نعم.. قررت أن أضرب ضربتي خلال ٤٨ ساعة على لا أكثر كما وعدتك، السيناريو واضح ، موضوع بدقة وأحكام، تعود لتجد كل تعليماتها وقد ضرب بها عرض الحائط، صدمة يمكن أن تزلزلها تمامًا، أما حين أعاجلها بأني سأخبر خالي الدكتور، فلا أتصور أن تقوى على الوقوف من هول الأمر، المشكلة أنني عندما اتصلت بخالي اليوم لإبلاغه لم يكن موجودًا ، أخبروني بأنه يقضي (تايم شير).. في البحر الأحمر، وعودته غير متوقعة قبل (الويك إند).. على الفور تلفنته على (الموبايل).

علمت منه أنه سيبدأ جولة سياحية ترويحية، قد تبعده عن البلاد أكثر من أسبوع ، هو خبير سياحي عالمي كما تعرف، وبعد أن استمع جيدًا ، أكد أن الأمر بسيط وسينتهي تمامًا بمجرد عودته. وشدد على أهمية عدم قيامي بأية خطوة هوجاء أو غير محسوبة، فقد تؤتي أمرًا عكسيًا، اصبر وانتظر عودتي.

لكن أعذرني لن أقف مكتوف الأيدي فلست قليل الحيلة، أحذر من سأخبر؟!.. سأخبر الدكتورة «هالة».. هي الوحيدة بنظرة، بنظرة واحدة منها تعيد المسكينة لرشدها، وهي أكدي لي أن الأمر قد انتهى تمامًا و...

ما هذا، أين أنت ذاهب، أتتركني وتروح، ما بك هل جننت!!

جاهل أحمق، لا بل نطع، أما علمت أن التنطع هو التصلب في غير موضعه، وقيل أيضًا هو التشدد دونما مقتضى.

فهرس